الطبعة الثانية
رواية
كلاحين الجبل
أمير مصطفى

أمير مصطفى من مواليد مدينة الإسكندرية، يعمل في مجال تصميم الأغلفة والإخراج الفني للمطبوعات منذ العام ٢٠٠٨، يشغل حاليا منصب المدير التنفيذي لدار حسناء للنشر. عمل في الفترة من ٢٠٠٦وحتى٢٠٠٧ مراسلا لمجلة اليقظة الكويتية، عمل مديرا لتحرير مجلة نوارس الصادرة عن وزارة الثقافة/فرع الأسكندرية خلال الفترة من ٢٠١٢وحتى ٢٠١٤.

يخوض في كافة مجالات الكتابة ، صدر له ديوان شعر (٤وشوش غيرى) عن مطبوعات الهيئة العامة لقصور الثقافة.كما صدرت له عام ٢٠١٥الطبعة الأولى من هذه الرواية. كتب مسرحية (الحاناتي) عن حياة جلال الدين الرومي ونشأة المولوية،والتي عرضت لأول مرة بمسرح مكتبة الإسكندرية في مارس ٢٠١٦.

حصل على جوائز عديدة في مجال شعر العامية، كما فازت هذه الرواية بالمسابقة المركزية لهيئة قصور الثقافة عام ٢٠١٤

تدور أحداث هذه الرواية في أوائل التسعينيات ، لترصد العلاقات والتغيرات المجتمعية خلال فترة من أحلك فترات التاريخ المصري المعاصر وانعكاساتها على النفس البشرية، لتسبر أغوارها وتكشف أشد جوانبها قتامة، عبر الانتقال بأحداثها بين شوارع مدينة الإسكندرية العريقة وأزقة كلاحين الجبل الخانقة، تلك القرية المنسية بأقاصي الصعيد، عبر الصراع الأزلي لتشابك الأهواء والشهوات بين شخوص أبطالها الذين يصادفهم القارئ في حياته اليومية المعتادة، في تداخل مشوق يمتزج بالعديد من الأحداث الحقيقية.

غلاف : أمير مصطفى

حسناء للنشر

كلاحين الجبل

ديوى : ٨١٣
مصطفي ، أمير
كلاحين الجبل / أمير مصطفي
الإسكندرية : حسناء للنشر
ط١ / ٢٠١٥
ط٢ / ٢٠١٦
١٧٦ ص ، ٢٠ سم
تدمك : 978-977-85187-1-9
١- قصص
٢- كلاحين الجبل
أ- أمير مصطفي
رقم الإيداع : ٧٣٨٠ / ٢٠١٥

{ جميع الحقوق محفوظة © }

الإسكندرية ، ج . م . ع
٠١٠١٨٨٣١٣٦١
٠١٠٢٢٨٤٢٨٩٨

المدير العام : غادل أبو الأنوار

المراجعة اللغوية : غادل أبو الأنوار
الإخراج الفنى : أمير مصطفى

كلاحين الجبل

رواية

أمير مصطفى

حسناء للنشر

هذه الرواية

الفائزة بالمركز الاول

فى المسابقة المركزية لهيئة قصور الثقافة عام ٢٠١٤

" المخطوطة "

الفائزة بالمركز الأول

فى مسابقة ربيع مفتاح الادبية عام ٢٠١٦

" مطبوع "

كتبت فى العام ٢٠١٠

الطبعة الأولى ٢٠١٥

الطبعة الثانية ٢٠١٦

" إن أصدق قبلة يتلقاها الرجل فى حياته ..

هى قبلة على خده من زوجته الخائنة

إثر توديعها إياه قبيل سفره الطويل .. "

{١}

لا يمكن وصف البكرى أبداً بالسذاجة ، وما كان لصبور أن يعبث معه ويظنه أبلهًا .. سيبقى غافلاً عن فعلته ويتركه يمـــرح بمالـــه ، وفراشه المستورد ـــ أمريكى الصنع ـــ مع تلك العاهرة التى لا تشبع أبداً ..

بلقيس .

بلقيس ..

حلم كل رجال (على سالم) الماشى على عقبين فى حمرة البرقـــوق الصابح ، واستدارة بنورة الساعات الإنجليزية متقنة الصنع.

بلقيس ...

عجينة الأنوثة وخميرة الدلال اللتان صنع منهما باقى نساء العالم.

بلقيس ...

مهرة كلاحين القبلية الحرنانة العاصية للترويض على أى شارب.

الأنثى التى ما إن تظهر على باب دارها حتى ترجف قلوب النساء ، وتذهب عقول الرجال وتختال عقول المـــراهقين مـــن فتنتـــها .. وللأسف زوجته.

حتماً كان أبوه محقاً عندما عارض زواجه منـــها لدرجـــة ضـــربه بالكرباج السودانى ، وهو (شحط) فى الجيش يرتـــدى (الأفـــرول الميرى) ، ويفتح ثغرة فى عمليات الاستتراف ، حتى عصاه البكـــرى وتزوجها دوناً عن كل حريم (على سالم) ، فضربه أبوه بـــالنبوت ليكسر له ضلعين ، ويرقده فى المستشفى ستة أشهر حتى يحن قلبـــه أخيراً على ولده فيسامحه.

لكن البكرى ، كان مخطئاً حينما دلّل صبورًا حتى أفسده.

صبور ..

الذى لم يصن حرمة الدم ، ولا لحم أخيه .

صبور النجس الذى لا يغتسل من جنابته الحرام لعدة أيام متتاليـــة ، نظراً لضيق وقته بين الخيانة والأخرى.

صبور الذى حجز مكاناً فى جبانة النجع لهما معاً.

الليلة يقتلهما وهما يتقافزان على مرتبته (التاكى) من نشـــوة المتعـــة الحرام ، ثم يوارى الجثتين فى الأرض البحرية ويفسر غياب صـــبور للجميع بسفره للجامعة ، وحينما يطول غيابه يلتاع ويجزع ويهرع يبحث عنه هو وكل أقاربه حتى يصبح صبور .. خرج ولم يعد.

أما بلقيس ، فلم يعرف بعد بماذا سيبرر اختفاءها ، ولو كان الأمـــر بيده لذبحهما معاً فى وضح النهار على رؤوس الأشهاد ليغسل عاره ويسكر بدمائهما ، ولكن ما باليد حيلة ، فلا يجب أن تناله الحكومة ، فمن يبقى لابنتيه من بعده ؟

هالة وصفية ..

أجمل بنات النجع اللتين ورثتا جمال بلقيس وروعة إشراقتها حينمـــا تضحك.

بلقيس .. التى لم تراعى أمومتها وتركت فرجها لصبور كى يلعقه ، حتما كان يلعقه و يعضها من حلمتها ، ألم تكن تطلب ذلك منـــه وكان يضربها ويتهمها بالعهر ، ما كانت تمنحه (شرفها) لو لم يكن أغواها بأساليب الأوساخ والشواذ التى تعلمها من مومسات القاهرة وأجنبيات شرم الشيخ.

الليلة يا بلقيس آخر ليالي خيانتك ، عسى أن تستمتعى بها لتعوضى الخمس عشرة سنة اللواتى قضيتِها حافظة فرجك له وحده.

الليلة يا بلقيس ، وهذا وعده الذى لم يخلفه منذ البلوغ.

يقول أبو طه، وهو يرص الحشيش فى دقة – كأنه (أجزجى) يحضر (لبخة) :

– مالك يا بو عتمان ، مسهم وشايل (عبكادر) ليه ؟

كان البكرى يسحب الجوزة بكامل عافيته ويطقطق الحجر بجهد مضن وافتعال فاضح كأنه يسجل فيلما وثائقيا عن الحشاشين ، ويضرب مثالاً للأجيال القادمة فى فنون الشد والكتم ، ثم نفث سحابة دخان من صدره تسد عين الشمس فى موسم الحصاد وأجاب:

– معلهش يا أبو طه أصل مشاكل الشغل (كدّ إكْدِه) . وآنى المفروض نازل مصر ، وبضاعتى مرمية ف المينا ف لاسكندرية وحاجة (مخربطة) ، طجيت م الشغل والعيال والنجع ، لجيت نفسى مخنوج جلت آجى حدك نشربوا حجرين واتونس بحديتك وبعدين أتوكل.

– تآنس وتشرف وأشيلك على راسى يا بكرى ، أنت عارف كد إيه معزتك عندى من أيام لعراج.

– تعيش يا محمود بس وحياتك تزعق لنا ع الشامى عشان عايزه ف موضوع إمهم.

– يلزمك إيه وآنى أوجدهولك يا واد خالى.

– ووه يا أبو طه ما تسمع الحديت يا خوى.

– حاضر يا صاحبى بس نتغدوا الأول وبعدين أجيبهولك لحديك.

– لا دلوكيت يا أبو طه أنا عاوزه ضرورى.

– جُلت لك حاضر بس أسحب أنت وأنا راح أبعت حد م الوِلْـد يجيبه.

ظل البكرى يسحب وينفخ ويطقطق ، وعاد أبو طه من الخـارج ليستأنف عمله فى (التكريز) والتسليك ورص الأحجـار والشـد بالمناوبة مع البكرى، حتى جاءهم الغذاء ، فظلا يمضغان ويكرعـان البيرة مع الطعام ـــ وهى عادة اكتسباها من زملاء مصريين أثنـاء عملهما فى العراق ـــ وزاد عليهما سيد الشامى فاستمرت معركة النهش والهبر ، ومصمصة العظام وتلك عادة صعيدية قديمة لاختبار الرجولة فى كل شيء حيث البقاء دائماً للأقوى ، واللعنـة علـى الرقيع الذى يستسلم أولاً فى أى شيء ، سواءٌ كان أكلا أم كيفا أم تدخينا أم حتى جنسا ، وهذه الأخيرة تكون فى عشش الـدعارة ، وبيوت المزاج حيث يحسب كل واحد منهم الوقت الـذى قضـاه الأخرين مع (المرة) .

وهكذا استمر الحال حتى خلت الصحون من محتواها الذى كـان يكفى لإطعام عشرة رجال (عتاولة)، فانتفخت البطون ، وتاهـت العقول ، و ثقلت الأنفاس ، وزادهم الشامى بواجب من الأفيـون

وظل أبو طه يقطع من أوقية الحشيش ويرص، والبكرى يستحلب الأفيون تحت لسانه ويسحب أنفاس الجوزة ، ويتبول ست مرات ـــ بفعل البيرة ـــ حتى آذان العشاء .. فتذكر أنه طلب الشامى كى يشترى منه كاتم صوت لمسدسه الحلوان ٩ مم.

نهض الشامى بعدها فى تباطؤ ، وذهب ساعتين كى يعود بكاتم الصوت من منزله الذى يبعد عن منزل أبي طه بمسافة مائتى متر ، وهكذا أنهى البكرى جلسته معهم ، ونهض ليستكمل طريقه إلى القاهرة ـــ كما زعم ـــ وغادر دار أبي طه عند منتصف الليل.

كان البكرى هو فعلاً الابن البكرى للحاج عتمان جيد .. أكبر تاجر طماطم فى نجع (على سالم) ، صحيحٌ أن النجع واحد من أفقر نجوع كلاحين القبيلة ، القرية التى لا يعرفها سوى مأمور مركز (قفط) ، ومدير الأمن بقنا، ولكن من قال إن الحاج عتمان فقير، لقد صافح عبد الناصر شخصياً وهو يمنحه خمسة فدادين بعد عودته من اليمن إبان الحرب ، فظل يفلحها هو وشقيقه منصور حتى مل منصور الفلاحة ، فترك الأرض لعتمان ونزح إلى القاهرة كى يبيع عافيته لمن يدفع أكثر حتى مجيء سنوات النعيم المسماة بالانفتاح ، فصار منصور من أكبر مقاولى البناء ، وظل يرسل لأخيه النقود كى يشترى المزيد والمزيد من الأطيان ، بينما هج البكرى مع هوجة

السفر للخليج ليساهم فى زيادة الرقعة الزراعية المملوكة للعائلة وظل الجيايدة ـــ وهم فرع من أولاد (على سالم) ـــ يكـــترون الـــذهب ويرتقون السلم الاجتماعى (المعدل) حتى صاروا تجاراً كبـــاراً، أو كما يقولون فى الجرائد رجال أعمال الانفتاح ، وبكـــوات العهـــد الجديد ، وصارت أرض الجيايدة أكبر أرض فى النجع بخلاف مصنع الصلصة فى قفط ، وعمارة بالمسلح فى النجع ، وأخرى بقنا المركز ، خلاف عمارات منصور بالقاهرة ومحالّه ، وعدة ســيارات نقـــل ثقيل و(أشياء أخرى).

ولأن البكرى هو الذكر الأكبر لأربع شقيقات ، فكان لزاماً عليـــه أن ينضج قبل الآوان ويبقى الذراع اليمنى لأبيه ، ويقضى عمره فى مطاردة الجنيهات حتى سافر العراق فى عزها ـــ بعد الحـــرب مـــع إيران ـــ ليعود بتجارة جديدة هى تجارة الأدوات الصحية ، ويصير من كبار تجارها ثم مستورديها فيما بعد، وكل هذا وهـــو مـــا زال مقيماً فى (على سالم) لم ينقل أسرته إلى القاهرة عنـــد عمـــه أو إلى الإسكندرية عند أخته خوفاً على ابنتيه من أهل المدينة ، وخوفاً على مصالح العائلة أن تترك بلا مباشرة منه ، وهكذا اكتفـــى بفـــايز ـــ وكيل النيابة ـــ ابن شقيقته فوقية المتزوجة من ابن عمه كى يرعـــى مصالحه هناك ،وكان يقضى أيامه فى الإسكندرية عند فوقية ،وأيامه

فى القاهرة فى شقته الفاخرة فى شارع السودان ومعه عمه منصـــور، وعادل أصغر أبنائه ، اللذان يقطنان ذات البرج المسجل باسم زوجة عمه (عشان الضرايب) ، ويبقى مقيماً حتى يتأكد من سير نظـــام العمل كما وضعه ، ويذكّر موظفيه أنهم تحـــت رقابـــة مجهريـــة ، ويرضى غروره الفرعونى الأصيل بإصدار الأوامر و(شـــدّة المحـــل الميرى) فور سماعهم (كلاكس التمساحة)، ثم يراجـــع الحســـابات وبعدها يعود مكدساً بالأموال ، محملا بالهدايا مـــن أجـــل عيـــون بلقيس اللوزيتين.

وربما هذا ما دفعها لخيانته مع صبور شقيقه الأصغر ، الذى كـــان بالأحرى له أن يكون ابنه.

صبور ..

الذى رباه فى بيته بعد وفاة أبيه وهو لا يزال فى الإعدادية.

صبور ..

الذى أصر البكرى على تعليمه (أحسن علام) حتى ألحقـــه بكليـــة التجارة فى القاهرة ، كى يتعلم أساليب الإدارة ، وفنـــون زيـــادة الثروة على أصولها.

صبور الذى سيقتله البكرى عارياً غارقاً فى البلل من عرق بلقيس وسوائل مهبلها الناعم الأبيض كبياض (سوتها) الرجراجة.

كان الفجر يوشك على الانبلاج ، وهو يتسلل عائداً إلى النجع من طريق الجبل بعد قضاء يومه مستتراً فى أبو طشيت عند محمود أبي طه – صديقه الأثير ، و بعدها ترك سيارته فى مغارة يوصل إليها مدق مهجور لا يعلمه كثيرون كان يخفى فيها الحشيش قبل نقله لأبي طه الذى يتولى توزيعه.

وراح يمشى حثيثاً فى الطريق إلى مترله ، وهو يستتر بالظلمة حتى (يكبس) عليهما دون أن يشعر به أحد ، حتى لاح له مترله فى الأفق ، فثبت كاتم الصوت فى مسدسه ، وتسلل إلى المندرة وزحف على الدرج إلى الدور العلوى للدار كاتماً أنفاسه محاولاً ألا يصدر أي حركة تشى به ، كان يريد أن يرى الذعر والهلع فى عيونهما قبل أن يتوسلا إليه ، وهو يسحب الأجزاء ويضغط (التتك) ـــ أو ربما كان يريد أن يرى كيف يفعلها صبور ـــ ولكنه حتى لو (موّل) على الربابة مثل سيد الضوى ما كانا سيشعران به وسط نشوة الجنس الشبيهة بنشوة المساطيل.

وأمام حجرة نومه ـــ حجرة نومه التى ثمنها يفوق ثمن دار فى البندر ـــ لم يتمالك نفسه وتأوهات النشوة تمزق طبلتى أذنيه ، بينما بلقيس تطلب المزيد ، وصوت صبور وهو يناديها (يا لبوة) يهلهل رجولته ، وينثر عليها منيه.

هجم البكرى على حجرة نومه كهجمته على مستودع بيت حانون الإسرائيلى ، أو ربما أشد بطشاً ، شاهراً سلاحه مغيب العقل بفعل الكيف ، والخيانة ، والقهر الذى انتابه وهو يتذكر سخريتها من (كرشه) و(غشمه) و(قلة وقته).

" إن أقسى حالات الرعب ..

هى تلك التى تجتاح رجلاً عارياً يمارس الجنس مع امرأة متزوجة ، بينما يفاجئ بزوجها المسعور مقتحماً الغرفة شاهراً سلاحه "

{٢}

اندفع البكرى إلى الحجرة محطماً بابها ، نافر العروق ، محتقن الدماء، كأنه غول الجبل وانفرد بأحد الضالين.

البكرى ..

الذى كل صفعة من كفه تعنى كسراً في الفك ، أو على أقل تقدير سناً ناقصة.

البكرى ..

الذى قتل (غريب) بستة طلقات فى جمجمته ، لأنه بصق على عينة الحشيش وهو يتذوقها قبل التسليم فى الجبل.

البكرى ..

الذى يصعد الجبل وحيداً ، فتهابه المخاطر وتهرب منه العفاريت.

البكرى الذى يصوب مسدسه نحو صبور الآن، ولا مجال للاستسلام، أو الاعتذار، أو دفع دية فى (قعدة عرب).

لم يجد البكرى وقتاً كى يفهم بل لم يجد صبور وقتاً ليفهم هو ذاته، لقد التبسه مارد الذعر وغريزة البقاء ، فلم يستوعب شيئاً غير مشهد البكرى ممدداً على السجادة الإيرانية باهظة الثمن والدماء

تسيل من شج فى رأسه الأصلع وثقبين فى صدره العريض ، بينما بلقيس تمسك تمثال الآلهة (باستت) الأبنوسى بكلتا يديها وما زالت حلمتاها نافرتين والعرق يغمرها كشلالات الفيوم ، وهو يقف على (السراحة) ــ ولا يعرف كيف صعد هناك ــ ويده قابضة على فردة حلوان ٩ مم مزودة بكاتم صوت ، يتصاعد من فوهتها دخان خفيف بدأ فى التلاشى.

كان لصبور عادة مقيتة يعلم جيداً أنها ستكون سبباً فى مقتله شر القتلة ذات يوم، ألا وهى إنه مدلل لا يحتمل الشقاء ولا التعب، يعشق النساء ورغد العيش، والحصول على كافة متع الحياة بسهولة دون أى جهد، لذلك لم يفعل فى حياته شيئاً سوى إغواء النساء الشهيات الثريات، فهو بالرغم من إرثه الفاحش من أبيه إلا أن البكرى ــ كبير العائلة ــ كان مقتراً عليه، ظناً منه أن كثرة المال مفسدة، فما كان مصروفه من البكرى يكفيه ثلاثة أيام فى الشهر، وكان لابد له من إيجاد بدائل سهلة، أحياناً كان يتطفل على إحدى شقيقاته، وأحيانا كان يرافق فتيات الليل مستغلاً وسامته وعذوبة حديثه، وخبرته فى شئون النساء، فيبقى ملكاً متوجاً وسطهن، يتدلل عليهن حتى يهبنه أجرهن من ليالى العذاب فى أحضان الرجال (القذرين) العنينين الآخرين.

ولكن كل هذا كان فتاتاً حتى نضجت الثمرة، وسقطت فى حجره طيبة شهية يسعى لالتهامها، فلم يكذب خبراً.

بلقيس ..

التى جاءت الدنيا كى تعلم الرجال معنى الأنوثة.

بلقيس ..

التى ربته مراهقاً (فأحسنت رعايته)

بلقيس ..

التى كان يشاهدها تستحم من بين خصاص شفاط البخار ـــ الذى عطله خصيصاً لهذا الهدف ـــ كانت والمياه تترقرق فى دلال على بشرتها المائلة للحمرة، وانثناءات جسدها البض رقيق الانحناءات تبدو أجمل من جنيات الحواديت ونجمات هوليود.

كانت وبخار الماء يغلف مفاتنها ـــ كأنه يحفظها من الخدوش ـــ، تثير فى قلبه الفتيّ ما لم تقدر عليه أى مومس محترفة فى فيلم جنسى.

بلقيس ..

التى كانت فى ليالى سفر زوجها الطويل تستدعيه لحجرتها كى يقرأ لها ترجمة الأفلام الأجنبية.

كان البكرى أول من امتلك فى كلاحين كلها جهاز ڤيديو ياباني الصنع، وطبق استقبال (١٢٠ متحرك) وارد إيطاليا، كان البكرى

أعلم أهل الأرض بفتنة زوجته، ولذلك فقد حبسها فى منزله وأتاح لها كافة وسائل الرفاهية فى سجنها الفاخر هذا.

كان صبور يقعى على الأرض تحت قدميها، بينما هى تستلقى على الأريكة وتتابع أحداث الأفلام الرومانسية فى لوعة حقيقية لم يفهمها صبور فى وقتها، بينما تتدلى قدمها بجوار وجهه، منمقة الأصابع مدهونة الأظفار، آية فى النظافة تستثير ألسنة (أتخن تخين) للعقها.

بلقيس ..

التى ما إن التحق بالجامعة فى القاهرة، وانخرط فى عوالمها السفلية فخبرها، وفك طلاسمها حتى عاد إليها كى يلاعبها بقواعد جديدة، كانت بلقيس تنهره كى يغير القناة إذا ما بدت مقدمات لمشهد جنسى فى الفيلم وكان بسذاجة الطفولة يطيعها ظناً منه فى صدق مرادها حتى صار يفعل ذلك تلقائياً حتى فهم معنى النظرة فى عينيها، وفهم رجفة شفتها السفلية الخاطفة التى تحدث فى مشاهد القبلات الساخنة.

بلقيس ..

التى تدرب كثيراً فى القاهرة وسافر خصيصاً إلى شرم الشيخ لـــدى ابن عمته ، كى يصقل خبراته جيداً وأتى إليها كى يطبق عليها نتاج (بعثته العلمية).

بلقيس ..

التى لم تحتمل هجماته المتتالية ، بل وكأنها كانت تتمناها ، ولا تجرؤ على الاعتراف لنفسها بذلك.

بلقيس ..

التى أشبعت غريزته بفتنتها لدرجة جعلته يزدرى كل من دونها، فلا تستحق أية واحدة أخرى لقب امرأة سواها.

بلقيس ..

التى لا يملك البكرى أن ينطق أمامها حرف اللام، فضلاً أن يقول لا كاملة.

بلقيس ..

التى أغدقت على صبور بأموالها وجسدها فصار لها عبـــداً مطيعـــاً، ولأول مرة مخلصاً لها وحدها، فلا يرى سواها من بنات حواء.

بلقيس التى تجلس الآن على كرسيها الهزاز، تنظر إليه بنظرات لم ير مثيل قسوتها من قبل، وهى تتأمل جثة البكرى المضرجة فى دمائها،

وصبور يبدو أمامها كالطفل الذى بال على نفسه وينتظر انتقام أمه الذى يعقبه دوماً تنظيفها أياه.

(ماما) بلقيس تفكر وستقرر، ولا يسعه سوى انتظار أوامرها.

حينما أشرقت الشمس، كان صبور يجلس فى غرفته مرتجفاً، لا ترحمه أفكاره السوداء، كان قد تسلل إلى حظيرة الماشية وأحضر جوالين من الخيش، وحبلا طويلا، وغلف بهم جثة البكرى بالسجادة الفاخرة التى طالما تشدق بثمنها فى كل مجلس، وأخفى الجثة فى سحارة السرير الأميركى الذى مل من سماع قيمته، الحق إن البكرى كان يعانى حالة متقدمة من إحداث النعمة، وكان لابد له من شر القتلة .

ولكن .. ليس بيدى صبور، صبور المدلل مرهف المشاعر الذى تحول فى أقل من اللحظة من حبيب شقى كأبطال أفلام السبعينيات إلى مجرم من العشرات الذين تملأ أخبارهم صفحات الحوادث، ولكن بلقيس تستحق أن تكون ملكاً خالصاً له، لا يتلوث فرجها بمنى رجل غيره.

بلقيس التى جعلت منه (باشا) وسط زملاء الجامعة بسيارته البيجو، التى أجبرت البكرى على شرائها له ، وبملابسه ذات الماركات

الأصلية ، وبالنقود الطائلة التى كانت تمنحه إياها من دولاب البكرى.

بلقيس هى التى قررت إخفاء جثة البكرى تحت سريرها حتى يكون صبور قد قام باللازم ، وحينما يجن الليل يخرج الجثة ويتخلص منها كأن شيئاً لم يكن ، خاصة وأن البكرى فى نظر الجميع فى القاهرة فى رحلة عمله التى تتخطى الأسبوع غالباً وبعدها يحلها ألف حلال.

ظل صبور طيلة النهار يتلوى وهو يتخيل نفسه يجر البكرى كى يدفنه، فينهض البكرى فجأة ويمزق الأغلال عن جسده ، ثم ينقض على عنق صبور ينهشه بأسنانه ، ويلقيه بدلا منه فى الحفرة ويهيل عليه التراب ، ظل يتخيل بلقيس وهى تخرج صارخة من دارها تعدو فى كل أنحاء النجع ، تولول على زوجها القتيل بيد أخيه العاق ، كان يرى المشنقة وقد تدلت من سقف حجرته ، بينما فايز ابن فوقيه يجلس على الكنبة العربى يدق بمطرقته ، ويحكم عليه بالإعدام فيأتى عمه منصور ويضع الغمامة على وجهه ، ثم يسحب الذراع المعدنى فتنفتح الطبلية تحت قدميه ويظل صبور معلقاً فى المشنقة عبرة لكل أهالى النجع.

كل هذا و بلقيس فى الخارج تمارس نشاطها اليومى ، وتتعارك مع نزهة ـــ أخته ـــ على العجين والغسيل وكأنها لم تشارك فى جريمة قتل ، وكأن تحت سريرها خزين البيت وليس جثة زوجها.

بعد صلاة العصر هدأت الدار ، وعادت نزهة إلى دار زوجها المجاورة لمسجد النجع ، وظلت الفتاتان فى حجرتهما يلعبان (بالآتارى) فجاءت بلقيس إلى صبور ، ورمقته بنظرة جففت الدماء فى عروقه ، و لم تنطق بكلمة ، نهض صبور متثاقلاً كأنه ذاهب إلى المشنقة فعلاً ، وخرج إلى (الأرض) وبقى فيها حتى صلاة العشاء ، وعاد بعدها إلى الدار ، وظل حبيساً فى غرفته يدخن ويجرع الشاى الأسود الثقيل ، ويرتجف انفعالاً ، حتى بات وشيكاً على ذبحة صدرية أو قرحة معدية ـــ بالرغم من حداثة سنه ـــ حتى انتصف الليل ، فجاءته بلقيس مرتدية جلباباً (رجالى) أثار هلعه خاصة وهى ملثمة بالعمة ، حتى بدت كأحد المطاريد المغير على حظيرة ثرية بالمواشى ، وأمرته بالنهوض ، فصعدا سويا إلى الدور العلوى ، وأخرجا الجثة وتعاونا حتى وضعاها فى صندوق سيارته البيجو ، فانطلق بها حتى وصل إلى أول المدق المؤدى إلى (المغارة) ، حيث يشوّن البكرى بضاعتة قبل نقلها للقصير ، وفوجئ صبور

بالتمساحة السوداء ـــ ذات الأرقام الثلاثة ـــ على المدق كأنها تعلن الحداد على القتيل ، كان صبور يرتقى الصخور كـــى يصـــل إلى الكهف المرتفع نسبياً عن الأرض ، وكان يجر جثة أخيه الثقيلـــة ، ويلهث كالكلاب فى نهار أغسطس حـــتى وصـــل إلى (الخزنـــة) ، الصخرة المربعة التى تسد فتحة السرداب والتى هى سر أبيه الـــذى ورثه البكرى ، ومرره بدوره لصبور.

سرداب ضيق شديد القدم يبدو عرضه أقل من المتر ، ويمتد لمســـافة مترين فقط ، ولا يبدو عليه أية لمسات فرعونية ولا يعرف له فائدة غير تخزين الحشيش.

حشر جثة أخيه فى ذلك القبر ذي رائحة الحشيش التى (ترد الروح) ، حتى استكثر صبور هذه الفخامة على البكرى ، وبعـــدها أهـــال عليها التراب ، وردمها بإتقان ـــ يساوى ثمنه حياته ـــ ، ثم أعـــاد الصخرة إلى مكانها وأحضر من سيارته ، (جركن) الماء كى يعجن (المونة) التى أعدها لذلك الغرض ، وهكذا لن يجد أحـــد البكـــرى حتى تقوم القيامة ، أو هذا ما يمنى نفسه به كى لا يقضى ذعراً.

وعاد بعدها مرتجفاً إلى داره ، ولم يغفل إخفاء سيارة البكرى حـــتى يجد لها حلاً نهائياً ، واغتسل جيداً وصر ملابسه فى صـــرة صـــغيرة توطئةً لإحرقها ، وفوجئ ببلقيس التى أزالت كـــل آثـــار الـــدماء

والعنف من حجرتها ، وكأنها تتلمذت على يد ريا وسكينة ، فبـــدا الحادث كأن لم يكن وتنفس صبور الصعداء أخيراً حينما بدا له أن هذه هى الجريمة الكاملة ، وبات يحلم بغدٍ أكثر إشـــراقاً ، وعـــالم جديد رائع كله بلقيس ، ولا وجود للبكرى فيه.

" إن الرجل لا يشعر بمرارة اليتم إلا حينما يطرح فى فراشه محموماً .. لا يجد من يناوله جرعة ماء"

{٣}

ينهض أحمد بصعوبة بالغة ويتكئ على طرف فراشه ، وهو يجاهد للوصول إلى الثلاجة ــ فهو يملك ثلاجة قديمة ٨ قدم كانت فى شوار أمه ، وسقطت من نظر زوجة أخيه فتركتها له ــ ينهض كى يشرب وربما استطاع أن يصنع لنفسه كمادات مثلجة تهبّط من شدة الحمى التى تنتابه.

يجرع جرعة كبيرة تموج لها معدته فيفرغها كلها على أرضية الغرفة ، فما كان يقدر على الإسراع إلى الحمام.

يترنح بائساً فى حالة مرضية شديدة السوء ، لابد من أن يعنى به أحد ، أى أحد ولكن رفاهية التمريض لا تتأتى لفقير وحيد فى الثالثة بعد منتصف الليل.

الحل الأمثل هو "أوزو" رفيق ليالى الإحباط والجوع والمرض ، يضغط زر الدكتافون وهو يشعر بامتنان بالغ لصاحب هذا الاختراع ولأوزو الذى أصر على ثتبيته بينهما بعدما مل مناداته الدائمة بعد منتصف الليل ، وبعد كثرة الشكاوى من جيرانهما سكان البيت.

صوت أوزو يأتى نعسانا متململاً ، ولكن ما أن يسمع بحة المرض فى صوت صديقه حتى يهرع إليه ، وما أن يراه حتى تنتابته لوثة الهياج ، ويهرع لجلال كى يوقظه ، ويأمره (بتسخين) سيارته الأجرة وينطلقا به (للميرى) أقرب مستشفى لهم وأكبر نموذج لمعاناة المصريين، وعذابهم الدائم على يد وزارة الصحة.

أشعل أوزو سيجارة لنفسه وأخرى لجلال فى قاعة الاستقبال ، بينما الممرضة مفرطة البدانة تثبت (الكانيولا) فى عروق أحمد الشبيه بالحرملة الممزقة من فرط الإعياء توطئة لحقن بعض المحاليل فى وريده ، طبعاً بعد العثور على الطبيب النوبتجى ـــ الموجود فى مكان سرى كأنه مطار الطاسة الحربى ـــ كى يقرر استئناف العلاج بالمستشفى ، أو تحويل المريض (للحميات) وهى الأخرى نموذج لظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

كان أوزو قد تخطى الأربعين بسنوات قليلة لم ترحم شعره من الصلع ، بينما حافظت على تكوينه العضلى الممشوق كأنه مازال فى

(الفورمة) ، و لم يقلع عن الملاكمة منذ ما يقرب من العشرين عاماً ،

وربما ساهم عمله (مكنجى) نجارة فى الحفاظ على متانة بنيانه.

كان أوزو يملك دوماً حكمة جاهزة استخلصها من كافة تجـــارب حياته ، وهى أن الناس كلها ولاد كلب ، ولا ينفع معهم الطيـــب أبداً.

يقولها لأحمد منذ سنين عدة ، ومع ذلك لم تحمه مـــن الخـــداع ، وضياع حقه ، وخراب بيته على يد مطلقته.

بمعجزة ما بعد مرور ساعة وربع فقط ، كان أحمد يســـتند علـــى كتف أوزو ، ويدلف إلى غرفته ، ويستلقى على فراشه ، و لم يشعر برحيل أوزو إلا حينما استيقظ عند الظهيرة وهو فى حال أفضل.

كان أوزو منهمكاً فى عمله على (الرابون) فى ورشته المجاورة لباب البيت ، والتى هى فى الواقع أقرب لأحمد ـــ باعتباره يقطن الـــدور الأرضى ـــ منها لأوزو ساكن السطح ، فحياه أحمد بتلويحة من يده ، وسارع الخطى للخروج من المنطقة.

ما كان يريد الخروج ، ولا يملك الذهاب إلى عمله وقد انتصف النهار ، وصار غيابه بدون إذن أمراً واقعاً وما كان لديه مكان يذهب إليه ، ولكنه مل شقته الضيقة ـــ غرفة وصالة ـــ وجلسته فيها وحيدا أمام القناة الأولى ساعة الظهيرة ـــ فترة ما لا يطيقه المشاهدون ـــ فجنح فى سيره ناحية البحر، واستقل مشروعاً ـــ ميكروباصاً ـــ حتى جليم واتجه إلى المرآب.

(جراج عابدين) ، الواقع بشارع محمود الديب أمام فيلا العمروسى ، بالطبع ماعادت الآن ملكاً لأحمد فهمى العمروسى بك وزير المعارف فى حكومة صدقى باشا ، ولكنها احتفظت بالاسم مثلما احتفظت العمارة الواقع تحتها المرآب باسم عمارة العبد بالرغم من هدمها واستبدالها ببرج سكنى مرتفع الأدوار.

المرآب ، وذكريات الطفولة ، وعاطف عابدين قريب والدته ، والذى اتخذ من أحمد صديقاً برغم صغر سنه، وصفقات بيع السيارات المستعملة التى أشركه فيها ، ومحاولاته الدائمة فى مساعدة أحمد فى إيجاد عمل مناسب ، وأول نقود حقيقية تعرف طريقها لجيبه.

جليم ، حيث نجلاء ابنة عبد الدايم البواب الريفى العجوز ، حب المراهقة وأحلام المنزل الواسع متعدد الغرف ، حلم السفر للخليج ، والعودة بسيارة محترمة مثل سيارات المرآب الفاخرة التى تمنى أن يقتنى إحداها كى يقودها إلى المعمورة و(يركن) أمام (ويمبى) ويطلب وجبة الكومبو (أم ٨ جنيه).

جليم ، حيث عاطف بمشكلات زوجتيه الاثنتين ، والمرآب الذى ورثه عن أبيه ، وسخريته الدائمة من كل شيء حتى من نفسه.

عاطف ..

بشهامته المفرطة ، وكرمه البالغ وحنكته فى التجارة.

عاطف ..

الذى جعل من أحمد أخاً أصغرَ، وفعل معه ما لم يفعله أخوه الحقيقي.

عاطف ..

الجالس مع أحمد أمام المرآب فى شمس الخريف الحنون، يتبادل معه الأخبار ويمازحه ، ويستمتعان معاً بمشاهدة النسوة العابرات فى كامل زينتهن كأنهن فى الحفل السنوى لنادى الروتارى ، ويستعرض معه إمكانية بيع السيارة الـ ١٣١ الخاصة بالمهندس ناجى ـ الدور

السادس ـــ ، يفعلان ذلك وهما يحتسيان القهوة المحوجة ، ويدخنان (السوبر) التى لا يدخن عاطف غيرها منذ أيام التجنيـــد ، بينمـــا يقاطعه أحياناً بالنهوض لمساعدة عماله فى تحرير سيارة أو (تحضينها) بجوار الرصيف ، وهو يسبهم ويدعو عليهم جميعاً بالخراب.

حين أقبل الليل ، نهض أحمد عازماً العودة لداره واقترض من عاطف عشرين جنيهاً حتى أول الشهر ، فعرج بها على حمدى البقال كـــى يشترى القليل من الجبن واللانشون والزيتـــون وعلبـــة ســـجائر ، ويستميت على الخمسة عشر جنيها الباقية ، ثم يعود إلى مترله قرب منتصف الليل ، ليستبدل ملابس الخروج بملابسه المترلية المريحـــة ، ويصعد لأوزو على السطح.

يقول أوزو وهو يعد الشاى بعد هذا العشاء (الدسم) :
– النهاردة جه مقاول عشان يشوف البيت.
– تانى يا عم الحاج ، من يوم الزلزال وده تالت مقاول ييجى ونقعد ونتكلم وبعدها يروح ويقول عدوا لى.
كان البيت قديماً .. يكاد يكون أثريـــاً كأغلـــب بيـــوت منطقـــة العطارين، وحينما ضرب الزلزال مصرَ منذ عامين مضـــيا ، كـــان

رحيماً بالإسكندرية ، بينما كان كاسحاً فى القاهرة الكبرى كأنه غضبة الرب.

لم ينهرْ أى عقار فى المنطقة كلها ، برغم سوء حالة البيوت بها ، و لم يترك الزلزال أثراً على بيت الشيخ رفعت ــ جد أحمد لأمه ــ سوى تصدع فى الجدار الداخلى للدرج بطول الدور الأول كله ، وقرار من المحافظة بالتنكيس وإزالة الدور الثانى ، وهو قرار حكومى ــ (كده وكده يعنى) ــ ومن يومها بعدما فشل السكان فى الاتفاق على تكاليف التنكيس ، وهم يحاولون العثور على حل أيسر بأن يجدوا مقاولا يهدم البيت ويبتنى واحداً جديداً مكانه ، ويمنحهم شققاً جديدة فيه وهو أمر يشبه أحلام المصريين الدائمة بالثراء السريع عن طريق مسابقة (لبان) ، أو العثور على حقيبة جلدية (سامسونايت) متخمة بالدولارات ولا يملون الحديث فيه ، ولا يبحثون عن حلول بديلة أكثر منطقية.

كان أحمد يهوى جلسة السطح فى الصيف ، حيث الهواء الرطب ولألآت النجوم وزوم الحمام فى (غية) أوزو ، بينما الشتاء يكون عذاباً مقيماً على السطح ، ولكن أوزو كان قليلاً ما يترل لغرفة أحمد ، فقد كان يفضل العزلة عن صخب الشارع ولقاء سكانه بعد

انتهاء عمله فى ورشته وهو يقضى نهاره قابعاً فيها يشاكس النـــاس ويشاكسونه ، لهذا كان أحمد يحتار دائماً فى الاختيار بين مجالســـة صديقه فى الزمهرير، أو التقوقع وحيداً فى غرفته.

يقول أوزو فى سخط وهو ينفث دخان آخر سيجارة فى علبته :

– ما كله م الولية (السوْ) بسبوسة مش عاجبها الاتفاق.

– وهى مالها يا عم هى دافعة حاجة من جيب أبوها ما الراجل كان موافق يدى لكل واحد فينا شقة صغيرة ويدى أم ســـعيد وفاطمـــة وعباس والزفتة بسبوسة دى كل واحد شقة كبيرة وأهو كل واحد على قد مساحة شقته.

– ماهى مش عاجبها أنه يديني محل أعمله ورشة ، بتقولى الحُق بتاع أبوك ده مش ورشة دى أوضة مسروقة ف بير السلم ومفتوح لهـــا باب ع الشارع.

– وهى مالها هى فلوس أبوها ما الراجل ها يديك حقك ، وبعدين دى ورشة غصبن عن عين أهلها أبوك الله يرحمه كان عامـــل لهـــا ترخيص وبطاقة ضريبية وسجل تجارى ولا إيه.

– نسوان عايزة الحرق والله ، عمرهم ما يحبوا الخير لراجل أبداً.

وتلك قناعة ثابتة عند أوزو ، كراهية الحريم التى لا يستطيع أحمد أن يلومه فيها أبداً ، ولكنه كان كأى رجل طبيعى يحب النساء ويشتهى الزواج ، ولكن أوزو رأى من النساء ما لم يره فى الميرى خلال سنوات التجنيد.

أوزو ـــ واسمه عبد الحفيظ ـــ كان الابن الثانى بعد أخيه يونس ، وله ثلاث شقيقات أصغر منه ، ماتت أمهم وهم بعد صغار ، لم يكن يونس أنهى الدبلوم وقتها ، وبعد أن توظف يونس فى الحكومة ، وتزوج واستقل بحياته بعيداً ، وجد أوزو نفسه مجبراً على القيام بمهام الأخ الأكبر ، خاصة بعد فشله فى التعليم مما جعله مساعداً لأبيه النجار رغماً عنه ، ومن بعدها وريثه فى المهنة ، ووجد أخواته فى رقبته ، فعاش من أجل (شوارهن) وزواجهن ، وأهمل نفسه حتى شارف الأربعين من عمره فحاول أن يلحق قطار الزواج، ولم يجد أمامه سوى نورا ابنة نصار الكهربائى ساكن السطح المقابل ، والتى ظلت لسنوات تشاغله من السطح وتشاغل كل أعزب فى المنطقة ، حتى تورط وتزوجها ستة أشهر فقط.

طبعاً ما كان يملك شيئاً سوى ورشته الأصيلة ، ذات الماكينات الروسية الثلاث اللواتي يضاهين عمره ، وغرفته بالسطح بحمامها

الخارجى ، التى لا يعلم كيف كان يعيش فيها أبوه وأمه والخمسة أشقاء معاً.

لم تمانع نورا من زواجها فى نفس الغرفة، طبعاً بعد بعض التجديدات و(التوضيبات) ، واستغلال باقى مساحة السطح بصنع (كارافان) خشب على يد أوزو ، واستخدامه كمطبخ ، و لم تكد نورا تستقر فى عش الزوجية السعيد حتى بدأت فى إحصاء دخله ، ومراقبة زبائنه ، وعد أنفاسه ، والاستيلاء على كل مليم يملكه لتنفقه على أدوات التزيين والملابس الفاخرة ، وادعاء الرقى والثراء نكاية فى كل امرأة عادتها فى المنطقة وكل رجل (مشت معاه كام شهر وسابها بسبب الجشع) ، حتى ضاق الحال بأوزو و لم يحتمل ، وزاد الطين بلة عراكها الدائم مع أخواته اللواتى يطالبن بحقهن الشرعى فى الورشة الموروثة ، و لم يكتفين بشباب أوزو الضائع عليهن ، ولأول مرة منذ وفاة أبيه يسب ويلعن وينهال بالصفعات على النساء الأربع ــ شقيقاته وزوجته ــ ، ويطردهن من البيت جميعاً شر طردة ، و لم تكذب كبراهن خبراً ولجأت هى وزوجها للقضاء مطالبة بحقها فى إرث أبيها ، وتبعها شقيقتاها الأخريان ، أما نورا فقد حزمت حقائبها المكدسة بالملابس الفاخرة ، والذهب

الذى اشترته من أموال أوزو التى استولت عليها منه جبراً أو التى ادخرتها من مصروف البيت دون علمه ، وعادت لبيت أبيها كى تطلب الطلاق ، وتكبده مؤخر الصداق و(القايمة)، وكل قرش كتبه على نفسه بحسن نية قبل الدخول بها ، ومن يومها لا يطيق من الإناث سوى (لاسى) كلبته الوولف الألمانية نقية السلالة ، والممثلات الأجانب اللائي يمتعن نظره على الشاشة ، ولا يطلبن المقابل.

لذلك كان أوزو يمتلك جهاز تليفزيون ٢٥ بوصة وهوائيًا حديثًا مزوداً بجهاز البوستر الذى يقوى الإرسال (حرامى الدش) ، الذى يستقبل بعض القنوات الأوروبية ، ولو كان ثرياً لامتلك الدش ذلك الاختراع الساحر.

لهذا كان يصعد أحمد ، ليستمتع بالصحبة البشرية ومشاهدة التليفزيون ، بدلاً من القنوات المحلية التى تنام مبكراً ، ولكون أحمد وأوزو هما العازبان الوحيدان فى البيت ، فدائماً ما تجد أحدهما عند الآخر ، إذا ضاق الرزق بأحدهما و لم يجد عشاءً أو شاياً أو سيجارةً يحل ضيفاً جبرياً على الآخر ، وكثيراً ما يجدان نفسيهما مفلسين معاً فيكتفيان بمشاهدة التلفزيون ، أو الاستمتاع بالدفء فى شقة أحمد

القبلية على أنغام وابور الجاز الذى يستعمله أحمد كمدفأة ـــ وهى حيلة ورثها عن أمه ـــ والاستماع إلى شرائط الكاسيت ـــ الطبعة الشعبية ـــ التى يجمعها أحمد بحرص شبه مرضى.

وهكذا ظلت بسبوسة تهان وتغتاب طيلة ثلاث ساعات كاملة ، و لم ينج سيرتَها منهما سوى الشيخ جابر حينما رفع أذان الفجر ، فقاما للاستعداد للصلاة ... وعودة كل منهما لوحدته.

" إن القوة الأسطورية للمرأة لا تتجلى أبداً ، إلا فى اقتناصها الرجل الذى تبغيه "

{٤}

كان أحمد يبدو معلماً أكثر من المعلمين أنفسهم ، بل ربما كان يبدو أستاذاً جامعياً ، وهو ما أثار فضول بسمة الأخصائية الاجتماعية ، كان أحمد السيد يعمل سائقاً لحافلة المدرسة ، أى أنه غالباً لم يستكمل دراسته ، ولا يكفى راتبه البسيط تكاليف الحياة الباهظة ، إن مظهره يوحى بالاستقرار المادى ـــ ابن ناس ـــ بالمفهوم الشائع للكلمة ، وكان دوماً صامتاً ، لا يتبادل معها إلا عبارات مقتضبة .. كان يجلس مع عم فكرى عامل الكانتين .. يدخنان سراً تحت الشجرة الوحيدة بالمدرسة أمام الكانتين ، حيث جلسة أحمد المفضلة والتى لا يتركها حتى يتم استدعاؤه من قبل المدير كى يلومه على التدخين ويهدده بالرفت.

وهكذا ينتاب بسمة صداع مزمن لا يريحها منه سوى شرب القهوة من الكانتين لأنهم فى غرفة الأخصائيين يملكون براداً وأكواباً وسبرتاية صغيرة يصنعون الشاى عليها ، هذا فى الصباح أما بعد (الفسحة) فكثيراً ما تصاب بالإسهال ، فتضطر للذهاب إلى حمام السيدات الموجود فى مبنى الإدارة ، وحيث الطريق المؤدى إليه يمر

ـــ بالصدفة ـــ بالكانتين جيئة وذهاباً ، و لم تره ينظر إليهـــا ولا إلى غيرها من زميلات المدرسة نظرة اشتهاء ـــ مما كان يهين كبرياءها الأنثوى ـــ .

ولأن المرأة حينما ترغب فى رجل لا ينجيه منها سوى ملك الموت ، وكان أحمد المرشح الوحيد لنيل دور البطولة فى فيلم حياتها العصيبة، ولأن بسمة تستحق الزواج ، ولا تستحق العنوسة كحال أغلـــب صديقاتها وقريباتها ، لكونها الكائن الوحيد فى عائلتها الحاصل على شهادة جامعية ، والتى قاتلت قتال الأبرار كـــى تلتحـــق بوظيفـــة بمدرسة خاصة للبنات بعقد مجحف (ولكنـــه مســـتديم ذو طـــابع حكومى) ، كانت محظوظة فى الظفر به.

و لم تعرف فى بيت أبيها العامل بشركة الملح سوى الزحام والجوع ومخططات الهرب ، لذلك فقد آن أوانهـــا كـــى تجـــد أى مغفـــل يتزوجها، وينجيها من بيت أبيها ، خاصة ولو كان هـــذا المغفـــل وسيماً أنيقاً، لا ينقصه سوى (القليل) من الثراء كى يصبح فـــارس أحلام أسطورى.

هكذا لم يكد العام الدراسى ينصرم ، حتى كانت بسمة تزين بنصرها بخاتم ذهبى محفور على إطاره الداخلى اسم أحمد ، وتاريخ الخطبة ، ورسم ساذج لقلب ينبض بالحب.
وصارت أمراً واقعاً فى حياته رغماً عن أنف كل المعترضين وعلى رأسهم أحمد شخصياً.

أحمد السيد ربيب (عاطف جراج) ، الذى كان سائقاً فى الجيش ، وبعد انتهاء مدة خدمته ، واستخراج رخصته المهنية استأجره عاطف كى يعمل على (التاكسى الشِرْك) الخاص به فترة طويلة ، وظل يتوسط له عند سكان العمارة كى يجد له وظيفه ثابتة ، حتى جعله القبطان حمدى ــ الدور الثامن ــ السائق الخاص بزوجته ، وبعدها بعام واحد أو يزيد ساعده اللواء البهنساوى ــ الدور الأول ــ على العمل فى تلك المدرسة إعمالاً بمبدأ (إن فاتك الميرى) ، لأن المستقبل يلزمه تأمينات اجتماعية ، ومعاش نقابى إلى آخره.
كان أحمد شاباً واسع الاطلاع ، غزير الثقافة بالرغم من كونه لم ينل تعليماً جامعياً ، فقط (دبلوم) بالكاد ، وهو ما كان يبهر بسمة بادئ الأمر ، ثم صار يضايقها ويولد الكثير من المشكلات بينهما ، فقد كانت ترى أنها (مربية أجيال) متعلمة شديدة الذكاء ، برغم

أن تعليمها (أميرى) ، وبالقطع ما كانت تقرأ سوى (برجك اليوم) و(أحدث خطوط الموضة) و(فقه المرأة المسلمة) الذى قرأته مـــرة واحدة و لم تفقه منه شيئاً.

وهكذا كان الصدام الدائم بين عقلية نشأت فى ظـــلال العقـــاد ، وزكى نجيب محمود ، وعقلية ترعرعت فى أحضان نادية الجنـــدى وهى تقهر إسرائيل بجسدها (المثير) ذي الخمسين خريفاً ، وعفاف شعيب وهى تتناول (الشهد) وتذرف (الدموع) فى تمـــام الســـابعة والربع من مساء كل يوم.

يجرع أحمد القهوة ـــ مشروبه الوطنى ـــ ، ورائحة دخان سيجارته تثير غيظها ، وهما يجلسان فى (قهوة السلام) أو كافيـــة دى لابيـــه بالفرنسية المطل على البحر لأنهما فى أول الشهر ـــ والراتب لا يزال (بخيره) فى جيبه ـــ فيتنهد ويقول :
– أكتر حاجة بتعجبنى فيكى يا بسمة هـــى براءتـــك ، أو يمكـــن سذاجتك وثقتك العامية فى الناس، الناس اللى ربونا خـــلاص يـــا حبيبتى خلصوا من زمان ، الناس دلوقتى بقت غـــيلان مســـعورة ، عبيد لشهواتهم أكتر من كفار الجاهلية ، لو كان بإيـــديهم كـــنتى

تلاقى كل واحد ماشى ف الشارع من غير لباس وشـــايل ســـيف أطول منه وبيدور على ضحية جديدة يسرقها أو يغتصبها أو يقتلها لو مالقاش عندها حاجة تنفعه.

" أكتر حاجة بتعجبنى" هل يظنها بلهاء ، أكيد يقصد أكثـــر مـــا يغيظنى ، أو ربما يكون صادقا فهو بالتأكيد يرى فيها ألف شـــيء يكرهه أكثر ، بدءاً بقبحها الذى تنكره أمام الجميع وتعتـــرف بـــه لذاتها فقط ، وانتهاءً بآرائها السطحية التى لو سمعها طفل فى العاشرة لاتهمها بالضحالة.

كانت تحكى له عن الفجيعة التى اقترفتها عزيزة فهمى مـــدرس أول الرياضيات ، والتى لم تسمع عن مثلـــها ســـوى فى مسلســـلات التليفزيون التى تتهم كتابها بالشطط.

وهالها بشاعة ما عرفته ، وكادت تجن لو لم تشى به لشخص آخر، فقد كانت عزيزة هذه أرملة مات عنها زوجها ، وهى ما زالـــت شابة فى أواخر الثلاثينيات بعدما أورثها ثروة طائلة ، ومن يومهـــا وهى تبحث عن متعتها الجنسية فى أحضان رجال فى عمر ابنتـــها ، حتى صارت فضيحتها (بجلاجل) مما جعل ابنتها نزيلـــة دائمـــة فى

مصحة نفسية ، ولكن ما أثار قشعريرة الرعب فى جسد بسمة ـــ غير متسق القوام ـــ هو هدوء أحمد فى تلقيه للخبر ، وكأنه يتوقع ذلك بل الأكثر هولاً أن يكون على علم به ، وربما طرفاً فيه بطريقة ما.

تمتعض شفتيها فى ضيق حقيقى وهى تطرد الدخان بكفها بشكل استعراضى مفتعل ، لأنها فى الواقع تهوى رائحة التبغ المحترق بل وتدخن سراً أيضاً ، ولكنها ككل امرأة .. تدعى النفور من الزوج المدخن ، وتحرم التدخين على خطيبها بدعوى الحفاظ على صحته ، بينما ما يثير جنونها فى الواقع هو إهداره للمال على متعته الشخصية التى لا تعود عليها بشيء ، بالرغم من شكواه المستمرة من قلة ذات اليد عندما تسأله عن (الموسم) أو تجهيزات الزواج ، وتجرعت جرعة شديدة الرقة ـــ لكى تحافظ عليه ـــ من كوب البرتقال و سألته فى استرابة :

– أنت كنت عارف ولا كنت بتخمن ؟

– ما كنتش عارف بس كنت متوقع لأنها فى اختبار حقيقى ، لأنها لسه شابة وجميلة وغنية وعايزة تلحق تعيش حياتها قبل ما تنتهى.

وللأسف فهى زى أغلب الناس فشلت فى اختبارها ، بدل ما تقاوم شهوتها جرت وراها ، عشان كده الجنة غالية قوى وعشان كـــده اللى هيروحوها قليلين ، هتلاقى كل واحد عمال يتفشخر بنفســـه ويقولك أنا مقبلش الحرام وعلى جثتى ، وأول ما يتزنـــق أو تجيلـــه الفرصة ف الدرا ويعرف أن جريمته محدش هيحس بيها تلاقيه اتقلب شيطان ، عشان كده الاختبار صعب وربنا يكفينا شره أنا نفسى ما أضمنش نفسى ساعة الإغراء ما هيكون كبير هاعمل إيـــه، ربنـــا يحفظنا ، لأن الاختبار فتنة تميز المؤمن من الكافر أو زى ما القـــرآن بيقول :

{أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ؛ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ.}[1]

وحتى فى الكتاب المقدس هتلاقى :

{وَالَّذِينَ عَلَى الصَّخْرِ هُمُ الَّذِينَ مَتَى سَمِعُوا يَقْبَلُون الْكَلِمَةَ بِفَرَحٍ ؛ وَهؤُلاَءِ لَيْسَ لَهُمْ أَصْلٌ ، فَيُؤْمِنُونَ إِلَى حِينٍ ؛ وَفِي وَقْتِ التَّجْرِبَـــةِ يَرْتَدُّونَ.}[2]

---

١ سورة العنكبوت الآيتين (٢ ، ٣)

٢ الكتاب المقدس ، لوقا ٨: ١٣

كانت تلك إحدى مميزات أحمد التى تبهرها وثير حسدها فى الوقت ذاته ، كونه متدينا حقا ، ويحفظ كثيراً من القـــرآن و(يفهمـــه) ، ولكن معجزته الحقيقية هى معرفته بالإنجيل ، وبالكثير من تعـــاليم المسيحية.

وهو ما يبدو خيالا علميا ، حيث المصريون جميعاً متدينون بالمظاهر، فهم فقط يؤدون الفرائض دون أى تطبيـــق لأخـــلاق الـــدين فى تعاملاتهم اليومية ، وقليلاً ما تجد مسلماً يحفظ شيئاً من القرآن ، أو مسيحياً يحفظ شيئاً من إنجيله ، وإذا وجدته فنادراً ما تجده يفقه مـــا يحفظه ، اللهم إلا إذا كان من علماء الدين.

ولذلك فإن أحمد بعد كافة المصائب والمسرات التى صادفتهما معاً ، لاتزال تستنكره فى كثير ، وتنبهر به فى كثير ، ويـــثير جنونهـــا فى الأكثر ، حتى إنها كانت تظنه ممسوساً أو على أقل تقدير (جاسوسا فى مهمة وطنية) ـــ دماغ أفلام ـــ كما يقول عنها دوماً ، ولكن ما كان يؤكد لها دوماً بشريته ، هى فقره الشديد ، وضيق رزقه الدائم ، بالرغم من امتلاكه حسابًا بنكيًا ، وبطاقة ائتمان ، وهو حدث لم تصادفه إلا على شاشة التليفزيون ، حتى ولو كان رصـــيده صـــفراً وحسابه الائتمانى مديوناً.

حتى ذلك كان يثير شكوكها أحياناً ، حينما تجـــده فى منتصـــف الشهر ـــ وهو يقبض لا شيء تقريباً ـــ ، وقد بدت عليـــه مخايـــل الثراء ، وامتلك نقوداً لا تعرف مصدرها ينفقها عليها بلا حساب ، وهو أمر يحسب له فهو شديد الكرم معها فعندما يملك مالاً لا يمنع عنها شيئاً اشتهته ، حتى ولو نسيت هى ذلك ، وهو أمر مقلق جداً أن تسأله يوماً شراء بضع الحلوى أو لوح شيكولاتة كورونـــا ذات الغلاف الأخضر ـــ مما يشعره ببلاهتها وطفولتها البائســـة المليئـــة بالحرمان ـــ ، فيعتذر لخواء جيبه تماماً ، وفى اليـــوم التـــالى تجـــده يهديها حذاءً جديداً يبدو باهظ الثمن بدلاً من حذائها المهتـــرئ ، وهو ما يجعلها تطير فرحاً بكل هداياه الـــتى تبـــهرها فى مواقيتـــها وأذواقها وملاءمتها لها، ثم حينما تنفرد بنفسها ليلاً تنهشها وحوش القلق ، فإذا وجد المال وهو ما كان يبدو مستحيلاً بالأمس فمـــتى يجد الوقت للشراء ؟ ، وإذا امتلك المال والوقت ، فكيف يعـــرف القياس والذوق اللذين يناسبانها ؟ ، وإن وجد هذا كله فمتى يغلفها بذلك الأسلوب الأنيق الدقيق لحد الغيظ ، لذلك فهى تستبعد فكرة المس الجنى فلا يوجد جان بهذه (العفرته) ، إذن فـــلا بـــد أنـــه فى اجتماع الأمس (مصر) أعطته هذه العبوة المغلفة مكافأة لـــه علـــى براعته فى العملية ، مثلما يعطى يوسف شعبان المظـــروف المنـــتفخ

لرأفت الهجان ، بينما موسيقى الشريعى تدوى فى الخلفية ، وهكذا تنام منهكة من كثرة التفكير ، ولا تنسى أن تحتضن الحذاء وهـــى نائمة مثلما كانت تفعل بملابس العيد الجديدة ليلة الوقفة.

" إن الرجل لا يحتمل الشقاء وسغب العيش وانقطاع أسباب النجاة .. إلا حينما يجد واحداً آخر يشاركه هذا الجحيم "

{٥}

يعد أوزو طعامه بكف فقدت عقلتين من أصابعها بترهما المنشـــار الميكانيكى الروسى فى زمن قديم ، المنشار الوحيد الباقى بعدما باع كثيراً من ممتلكات الورشة ، كى يستخلصها لنفسه ، ويلقى المـــال فى وجوه شقيقاته ، وتصير بينهم القطيعة للأبد.

الورشة ..

التى ذاق أشهى الأطعمة من إيرادها ، التى جعلته رجلاً ، وجعلـــت شقيقاته الجاحدات أمهات لهن بيوت وأطفال.

الورشة التى جعلته مطمعاً لنورا ، وأفسدت عليـــه حيـــاة الأزواج المستقرة.

كان يصنع الموسكا ، وهى أكلة خضروات باللحم المفرى اكتسبها من سنوات عمره التى قضاها فى اليونان يجرع الأوزو ـــ وهو سبب اسم التدليل الخاص به ـــ ، ويأكل الأسماك البحرية الشـــهية كـــل يوم، ويصادق من الفتيات من هن أجمل من أثينا ، وأكثر بهاءً مـــن أرتميس ، ويملك من المال ما يشترى به مصنع أخشاب.

كان ذلك النعيم فى سنوات شبابه المبكر الذى ظنه سيدوم أبد الدهر حتى بلغه نبأ وفاة أبيه ، كى يترك كل شئ ويصل للإسكندرية فى اليوم التالى حتى يحضر الدفن بنفسه ويتلقى العزاء ، ومن يومها وهو يحيا فى استقامة النساك ويتنفس فى كل شهقة حلم العودة لأوروبا أو حتى أفريقيا . المهم أن يبتعد عن الفقر والجشع والتكاسل المتوطنين فى مصر كأنهم البلهارسيا والأمية والوساطة.

أوزو ..

الوحيد الذى لا يؤنسه سوى (لاسى) الأنثى الوحيدة التى لا تزيف مشاعرها ولا تدعى عكس ما تشعر به وتحبه دون شروط ، وأحمد السيد ..

البائس الآخر الذى يذكره بآلام حياته ويشعره بالألفة فى هذا العالم الموحش.

أحمد السيد ..

حفيد الشيخ رفعت الذى توفى جده الذى استأثر بتربيته باعتباره أصغر أحفاده والذى ذاق اليتم مبكراً ، وبعد وفاة الشيخ رفعت أصر أحمد على البقاء فى مسكنه ، يتخذه مقراً له أيام دراسته و نادياً لأصدقائه أوقات الإجازات حتى ماتت أمه زينب واستولى شقيقه محمد على شقتها الواسعة وتزوج فيها وجاء يتقاسم مع أخيه

ممتلكات أمه وجده ، فيستأثر لنفسه بما يروق لزوجته ويترك الفتات لأحمد المسكين الذى يشاطره جحود الأشقاء ، ونكـــران الأهـــل واليتم المبكر ، و الوحدة.

أحمد ..

الذى ورث عن جده شيخ الأزهر مكتبة عامرة هضم كل حـــرف خط على صفحاتها ، ونماها بجهود حثيثة وصارت عشقه ومبلغـــه وكانت الشيء الوحيد الذى زهدت عنه امراة أخيه كل الزهد فلم تنازعه عليها.

أحمد ..

أحد السائقين الخبراء فى مهنتهم ، والذى كان يعمل لدى قبطـــان بحرى وينال منه أجراً جعله يعرف الطريق للمصرف لأول مـــرة فى حياته بخلاف الهدايا والملابس الأجنبية المبهرة ، والتى كانت تجعلـــه كأحد ممثلى السينما بقوامه الممشوق ، ووسامته المفرطـــة وأناقـــة إيماءاته العفوية كأنه سليل عائلة ملكية.

كان أحمد بعقليته التجارية الفذة وبراعته فى عقد الصفقات مـــؤهلاً لمستقبل مبهر مليء بالرفاهية ، ورغد الحياة حتى ترك عملـــه دون

مقدمات ليعمل سائقاً لحافلة مدرسة بما يقل عن ربع الراتب الـــذى اعتاد عليه . وإن كان أوزو يشك أن الموضوع يحمـــل بصـــمات امرأة، فالمرأة هى المخلوق الوحيد القادر على إفســـاد أيـــة حيـــاة منتظمة وهى المخلوق الوحيد القادر على تدمير أعـــتى الرجـــال ، وإفساد أقدس النفوس .. المرأة التى خلقها الله ابـــتلاءً لـــبنى آدم فى الدنيا كى يجازيهم بجنة الخلد التى لابد ستكون (للرجال فقـــط) ، المرأة التى تحل بلعناتها وتأتى دوماً بالفقر فى أعقابها ، وخصوصاً تلك الفتاة أم (قدم شمال).

لايعرف أوزو كيف يراها أحمد ويتقبلها ، فهى قبيحة الملامـــح لا يكاد يرى لها أى مظهر أنثوى ، وهذا كله شئ و(مفعولها) شـــئ آخر تماماً.

فبمجرد خطبة أحمد لها بدأ فى حياته فاصل جديد يملؤه الاقتـــراض والسجائر (الفرط) ، وأيام كاملة خالية من الزاد ، إهمال تام فى ذاته حتى كثرت حالات مرضه المفاجئة و اختفت عيناه وسط هـــالتين سوداوين قبيحتين ، و قل وزنه أكثر من عشرة كيلوجرامات.

وبعد عامين بدأ أحمد فى التدنى لأسفل الدرك حـــتى لاحـــظ أوزو نقصاً مستمراً فى مقتنياته ـــ وخاصة المكتبة التى يكاد يقدسها ـــ ،

وبدأ يعانى مشكلات قانونية مع دائنيه ، وصار زبوناً مستديماً لدى زكى عوض المحامى القاطن أعلى عرفة العطار ـــ ومكتبه صالة مترله ـــ وهو محام (على ما تفرج) ، ويعمل شكك فما كان أحمد يقدر على أتعاب أى محام مخضرم حتى ولو كان (وارد الأرياف).

أحمد السيد الذى يدوى صوته فى مكبر الديكتافون ليتاكد من وجود أوزو متيقظاً بغرفته ، ويبلغه بقدومه إليه بـ (كيس) بن محوج يستحق سهرة من أجله.

" إن الجريمة التى تسترت عليها كارثة قدرية ، يلزم لهتك سترها كارثة أشد هولاً "

{٦}

يهب صبور من نومه مذعوراً على صراخ بلقيس وهى تهرول بحثاً عن الروب الحريرى كى تستر جسدها الزاعق بالنضج الأنثوى وتهرع لغرفة ابنتيها وهى تولول ، بينما تتجمع صرخات أهل النجع جميعاً فى صرخة واحدة مرعوبة ترج الكون كله وتبعث الذعر فى أرجاء الأرض الأربعة كأنها صرخة المذنبين يوم الحشر.
فيقفز قفزاً من على سريره (بالوراثة) ، وينطلق (كالطلق الحى) للخارج كى يرى السماء وهى تطبق على الأرض ، و(تفعص) سكانها بقسوة الطبيعة الكاسحة التى لا تعرف التعقل ولا تبقى وراءها كائناً حياً.

(قنا) عذاب الماء ، كان يقولها أبوه ساخراً ، بينما هو ما زال طفلاً، لا يعرف عن النيل سوى وداعة غبية طينية اللون يبارى فيها أقرانه فى السباحة ، ويتلصص على شاطئها كى يختلس النظرات لسيقان نسوة النجع المكشوفة وهن يغسلن فيها أوانيهن النحاسية أو ملابس أسرهن.

كان أهل النجع أحياناً يلقمون نيلهم جثث البهائم النافقة ، فيتقبلها بترحاب دائم ، وأبداً لم يغضب.

لم يكن صبور يعرف ضراوة نيل مصر إبان الفيضان والمياه الفائرة حمراء اللون وكأنها دم الغرقى المسفوك تقتلع أشجاراً باسقة من جذورها وتكسح بيوت السكان اللبنة بما فيها ومن فيها فى طرفة عين.

إنه لم يعرف سوى النيل العجوز المروض بفعل السد العالى ، الأليف المطيع كأنه أجير فى خدمتهم.

ولكنه اليوم فهم عبارة والده التى بدت فى غاية الحكمة وتمنى لو كان أبوه موجوداً ليعرف كيف سيتصرف فى مثل هذا الموقف؟.

لقد كانت المياه الهادرة تهاجم القرية من الست جهات دون مبالغة ، السماء تهيل الأمطار على الرؤوس فى مشهد كان يصف الشيخ حجازى مثيله فى أهوال يوم الدينونة ، بينما كل جهة من الجهات الأربع (تطرش) فى الوجوه طوفاناً من الماء الأسود المختلط بالتراب الذى يلتهم كل ما يقابله من بيوت وأثاث وزروع وبشر ، بينما الأرض تميد بالجميع من تحتهم ، وتتفجر فيها المزيد من عيون الماء ولا يعرف كيف ، وكأن كل هذه المياه لا تكفى لشطب (على

سالم) من خريطة قنا المعلقة بمديرية الأمن ، وكأن مياه النيل اختزنت كل أعوام الفيضان المقيدة بفعل السد العالى فى حقد مكتوم ، ثم جاءت تطلقها على الجميع فى يوم واحد.

كان صبور يصرخ فيمتزج صراخه بالنشيد الكابوسى لأهالى النجع، ويجاهد الطوفان لكى يعتصم منه بالجبل (الجبل الذى وارى فيه جثة أخيه القتيل) ، ويبدو أن هذه الفكرة سيطرت على عقول الكثير ، فصار التزاحم والاقتتال بين أهالى البلدة كأنه الفرار من .... من ماذا ؟ .. إنه فرار من الطوفان الذى أهلك من قبلهم أمماً سادت الأرض لأزمان عدة ، الطوفان الذى لا يذر أحياء ولا يجعل فى الأرض موطناً جافاً لقدم هريرة.

كان الناس يدهسون بعضهم بعضا تحت أقدام الذعر الغليظة دون أى تعقل أو محاولات فهم ، وكأن كل هذا الهول لا يكفى لفناء جنسهم ، فراحوا يساهمون فى عملية استئصال شأفة البشر من الأرض ليتركوها لسيادة الطوفان ، الطوفان الذى عبده الفراعينُ اتقاءً لغضبة مثل تلك تذهب العقول وتهدى الزنديق وتلحد (صاحب الطريقة).

ماء على ماء ، من أعلى ، من أسفل ، علـــى ذات الـــيمين وذات الشمال ، ماء غادر يزأر فتدوس النسوة على أطفالهن بحثاً عن منجى ، ماء ينقض على فرائس بشرية معدومة الحيلة فيموت أشد الرجال بالصدمة العصبية قبل أن يبلغ منسوب المياه عنقه.

قد أهلك الطوفان قوم نوحٍ من قبلهم وصاروا عبرة للاحقين ، فهل سيبقى من الكلاحين ، بل وقنا بأجمعها ، وربما مصر كاملة ... هل سيبقى منها ما يصير عبرة لبشر آخرين ؟ أم تراه يوم القيامة وكـــل خلق الله يلتهمهم الطوفان كما يفعل الآن فى كلاحين القبلية ؟.
كان يعدو بسرواله (أبو دكة) ، وهو يرفرف بذراعيه كالمجاذيب ، وصور الغرقى وشلالات المياه السوداء تزاحم فى عقله صوراً مشابهة من عامين مضيا ، وكأن الطبيعة مصرة على إفناء القطر المصرى .
كان يرى الأرض تموج بالمياه الحانقة ، ويرتفع مستواها ليخســـف بكل البشر وآثارهم ، ذات الأرض التى انشقت من قبـــل لتبتلـــع العمارات والأبراج شاهقة الارتفاع فى غمضة عـــين ، وتبتلـــع فى جوفها نصف مصر ... ومقتل البكرى.

لم يجد أحد الوقت كى يلاحظ اختفـــاء البكـــرى ، ففـــى ذات الأسبوع تصدرت أخبار الزلزال كل وسائل الإعلام وباتت حديثاً

طويلاً متصلاً فى كل جلسات أهل النجع ، النجع الذى نجا من الزلزال كأغلب صعيد مصر، وكان فقط يبيت لياليه مؤرقاً فى متابعة أخبار أبنائه فى القاهرة الكبرى موطن الكارثة.

وصار الراديو الترانزستور ضيفاً حاضراً على كل شخص فى كل أوقات يومه ، فى حين يتولى التلفزيون نوبته بعد انتهاء الأعمال وانقضاء المصالح فى عجالة ، وكثرة القراءة الجماعية للصحف الثلاث بحثاً عن كل خبر جديد ، وكل جثة يتم انتشالها.

وفى اليوم الرابع من أيام الكارثة تساءل أحد العباقرة فى وجاهة شديدة عن أخبار البكرى فى مصر، وحال عمه منصور.

كان منصور قد نجا هو وأولاده جميعاً من الهول بعدما خسر عمارتين و(زلموكة جديدة) انهارت عليها ثلاثة طوابق بسكانها، ولكن البكرى لم يعرف أحد عنه أى شيء ، خاصة أن العم منصور لم يبلغه قط وصول البكرى للقاهرة وهو عمدة الكلاحين فى العاصمة.

بدا صبور متفائلاً وهو يضع احتمالية وجود البكرى مستتراً فى الإسكندرية أو عند أبي طه ، ولكن بلقيس ظلت تنعق كغراب البين، وتولول على رجلها الذى حتما ذهب إلى القاهرة لأنه على

موعد مع (فرج بيه) نائب مجلس الشعب ، مما دعا لتشكيل لجنة بحث قوامها صبور وحامد زوج نزهة وعبد المغنى زوج أماثل وهو من كلاحين أبنود وحضر بزوجته لمؤازرة العائلة فى فجيعة فقدها للبكرى و بلقيس التى أصرت على الذهاب معهم فى تشنج هستيرى تستحق عليه الأوسكار ، وهكذا قابل فريق (الشجعان) عادلا وعليا ابنى منصور فى القاهرة ، ولحق بهم من الإسكندرية فايز ابن فوقية ، ومن البحر الأحمر دياب ابن نعمة ، كى تبدأ رحلة البحث عن البكرى ـــ أو جثته ـــ فى شوارع القاهرة المنكوبة وكأنها السويس فى زمن الحرب.

قال شاهد ـــ ابن حلال ـــ إنه شاهد البكرى قبل الزلزال فى الحسين يزور أهل البيت ، بينما صرح ـــ ابن حلال آخر ـــ بأنه سهر مع البكرى فى الأريزونا ذات الليلة ، واستمرت بهم الحال هكذا مع (أولاد الحلال) حتى مضى أكثر من شهرين لعقت فيهما المدينة البائسة جراحها ، وبدأ الناس فى استيعاب وضعهم الجديد بضم مصر لحزام الزلازل ، وعادت المدارس لتفتح أبوابها أمام الطلبة من جديد بعدما صارت حصة (كيفية اتقاء خطر الزلازل) مقرراً إجبارياً جديداً ، وهكذا حتى صرح لهم (الشيخ) جميل الحاوى ـــ

مدير معرض مكرم عبيد ـــ بما كان يخفيه بين جنباته حـــتى أثقلـــه السر وأضناه الكتمان.

أخبرهم الشيخ جميل وهو يغالب دمعه فى وقار يحسد عليه بأنه ترك (الحاج) البكرى ليلة وقوع الزلزال ـــ وهـــذه أول صـــدمة ـــ فى مخزن العباسية ـــ وتلك الثانية ـــ أما ثالثة الأثافى فهى انهيار العقار القاطن به المخزن ومعه أربعة عقارات مجاورة وهلك تحت أنقاضها جميع سكانها، إضافة إلى عابرى السبيل تعيسى الحظ الذين تواجدوا فى ذلك الشارع تلك الساعة النحس.

كان ودمعه ينهال على لحيته الكثة فيبللها فى منظـــر يمـــزق نيـــاط القلوب .. يبدو تمثالاً ناطقاً للصدق ، مما جعله يتفوق على بلقيس ويتفرد وحده بالأوسكار ، بينما صبور يغلى ويتقد حتى كاد يلطم الخدين من هذا الإفك ، فهو و بلقـــيس الوحيـــدان علـــى الأرض الواثقان من مكان البكرى الآن ، وهما وجميع أهلهما لا يعرفـــون شيئاً عن مخزن بالعباسية مملوك لأخيه رجل العائلة الـــذى يطلعهـــم على كل كبيرة وصغيرة.

أخوه مريض التفاخر الذى لو اشترى علبة ثقاب مستوردة لقضى لياليه فى المقاهى يجالس كافة خلق الله كى يحكى لهم وهو مطـــرق الرأس فى تواضع مصطنع ، كيف أن الله أكرمه بشراء تلك النعمـــة بكذا وكذا ، وإن كله من مال الله (إحنا لينا فيها إيه) ، ثم يستأنف فى ورع (أصيل) : "وأما بنعمة ربك فحدث".

أخوه هذا ما كان يخفى ملكيته لمخزن بهذه المســـاحة ، وفى هـــذا المكان ، وهو ما أثار ريبة الجمع ، حتى أتى (الحاوى) بعقد شـــراء صحيح مثبت التاريخ موقع عليه البكرى.

وهكذا عادوا جميعا ـــ بما فيهم هشام وعادل وعلى وحتى دياب ـــ إلى النجع لاستكمال مؤتمرات المشورة ، والخروج بنتيجـــة تـــريح أذهانهم .

و لم يكد عامٌ ينقضى على الحادث ، حتى وجد صبور فى يده شهادة وفاة لأخيه (شهيد الزلزال) ، ساعده فى استخراجها المستشار فـــايز ونائب مجلس الشعب (فرج بيه) ، واستدعاه عمه منصور كى يأمره بالزواج من بلقيس.

الأرملة المنكسرة على بنتين من لحم أخيه الكبير ، والوصـــية علـــى إرث أبيهما ، وحيث لا يوجد عند الصعايدة أعز من شيئين لابـــد

من الحفاظ عليهما فى قبضة العائلة بأى ثمن ... الأرض والنساء ، وعندما اعترض صبور بحجة فارق السن بينهما ، نهره عمه وأمره بإقامة حفل زفافه عليها بصورة تليق بالجيايدة ، وتنسيهم مرارة الحزن، و لم يترك لصبور سوى الخضوع على مضض ـــ حقه فى الأوسكار هو الآخر ـــ وتم الأمر كما أراد العم منصور جيد.

كان صبور يرفل فى رغد جنته بالمعنى الحرفى للكلمة ، فقد أوكل إليه عمه شئون العائلة ، وهكذا عاد إليه إرث أبيه كاملاً ، والذى ظل البكرى يقتّر منه عليه حتى أذله ، بالإضافة إلى مال البكرى الذى هبط عليه من (طاقة القدر) فجعله إمبراطوراً ، بينما جعلته بلقيس بجمالها (هارون الرشيد فى حكاوى ألف ليلة وليلة) .
بلقيس التى بلغت ذروة رونقها الأنثوى وهى على مشارف الأربعين، والتى جعلته أميراً من الحواديت ، بلقيس التى كانت تتمنى زوجاً يفيض عليها حنانا وفحولة مرة واحدة يومياً فتنال بدلاً من ذلك زوجاً (أكل ومرعة وقلة صنعة) ، لا ينفك يعاشرها آناء الليل وأطراف النهار ويطاردها بتدليله إياها فى كافة أركان المترل كأنه مازال عشيقها الذى يترصد كل فرصة متاحة كى ينالها ، حتى ذابت فى كل خلاياه عشقاً كانت تترجمه دوماً إلى أموال سائلة تزيد

من تعلقه بها ، وهكذا تستمر دائرة العطاء الطردى المتبادل بينهما ، ولا يكاد يكدر صفو حياتهما سوى الملعون الحاوى، الذى بـــاعهم موت أخيه بالزلزال حتى يستأثر لنفسه بمحتويات ذلـــك المخـــزن السرى التى لا يعلمها إلا الله ، والذى صار الآن هـــو (الكـــل فى الكل) بعد وفاة البكرى وجهل صبور بأعماله.

ولكن بلقيس ـــ الحلم المجسد فى ثوب امرأة ـــ أمرته بأن يتناســـى الأمر ، بل وأمرته بترك المعرض للحاوى يفعل به ما يشاء ، فهـــو صاحب الفضل فيما هما فيه الآن ، وكأنه تستر على جريمتهما ونال أجره ولينعما ببعضهما بعضاً ، ويعوضان مـــا فاتهمـــا فى وجـــود البكرى حتى ظن نفسه فى جنة الخلد.

" حينما يأتى طوفان الموت الجماعى ليجرف معه أغلب النفوس ويذر خراباً منتشراً وقلة تجاهد للبقاء.
قد يكون الموتى وقتئذ أوفق حظاً من الباقين أحياء "

{٧}

يجلس صبور منهكاً على بروز صخرى ـــ كان يقع منذ يومين فقط فى (حضن الجبل) ـــ .

يتطلع فى وجوه أهلكها الإعياءُ والذهول ، وما زالت تعانى فقد النطق ، ووجوم الصدمة ، بينما النسوة لم تنفك (تعدد) على زينة شباب النجع ورجاله بصورة غيبية ، فهن ما زِلن لم يتيقن بعد من مات ومن نجا فى هذا اليوم الأسود.

يجلس صبور ، ويجول فى الوجوه حوله محاولا حصر الضحايا ، بينما لا يزال الصيب يهطل كأنه غضب المولى المسلط على تلك القرية البائسة.

لربما كان هو سبب ابتلاء النجع والقرية والمركز أيضاً بطوفان السخط الإلهى كي ينتقم الله منه جزاء فعلته على عيون الأشهاد من الباقين فى النجع ، ربما جاء الطوفان خصيصاً كى يجرف قبر البكرى ويظهر جثته المستترة فيه منذ عامين ، ربما جاءت نقمة السماء كى يعرف أهل النجع بفعلته فيرجمونه حياً هو و بلقيس.

بلقيس ..؟

تنبه الآن فقط لغياب بلقيس ، بل لقد تنبه لوجودها أصلاً فى الحياة، بلقيس والبنتان يا (خبر أسود) ترى أين هن ؟ ، وماذا حدث لترهة وزوجها ؟ ، ترى ماذا حدث لأماثل ؟ بل المهم ماذا حدث للكهف المدفون فيه البكرى والذى غمرته المياه والطين وفتت اندفاع الميـــاه جزءاً من صخور مدخله ؟ ، ترى هل آن وقت سداد الدين ، أم لا يزال البكرى راقداً فى قبره الصخرى بسلام ؟ وكفاه تنغيصاً عليه فى حياته ، فليفعل (حسنة) واحدة بعد مماته ويبقى مختفياً عن الأنظار.

ظل صبور هائماً فى فكره ، واعتصامه بكهوف الجبل التى لم تغرقها المياه هو وأهل قريته القبلية كلها حتى أشرق الصباح التـــالى وهـــو يبشر بقرب نهاية الكارثة ، فقد هدأ طوفان المياه واقتصدت السماء فى مائها ، فصارت مجرد (أمطار غزيرة) ، وليست سيولا كاسحة ، وبدأ أهل القرية فى البحث عن المفقودين ومحاولات انتشال بضـــعٍ من أغراضهم ومتاعهم الطافي أو الغارق فى متناول اليد ، وبـــدأوا بالفعل فى تأسيس حدود جديدة للنجع ، بل لقرية كلاحين القبليـــة التى صارت تقع بأكملها فى (حضن الجبل) حرفياً وصار ســـكانها (ينحتون فى الجبال بيوتا) بينما فؤجئ المطاريدُ (الفارّون من أحكام،

أو من التجنيد الإجبارى) بأنهم صاروا أهل الدار ثانية بعدما صارت القرية بأكملها (مطرودة) بفعل السيول.

السيول كما أسمتها الحكومة ، والطوفان كما خبره أهل البلدة المنكوبة.

كان الشيخ حجازى قد وجد راديو ترانزستور مغلفاً بالمشمع داخل أحد الصناديق (يبدو أنه كان جزءاً من شوار أحدهم) ، وظل يبحث عن حجارة جافة طيلة يومين صار يجول فيهما باقى نجوع القرية بلا هدى حتى عاد بأنباء رهيبة بالفعل تواسى أهل القرية وتهنئهم على سلامة أبدانهم.

ينوح الشيخ حجازى وهو يتمتم بما لا يتنبه له أحد ، ولا يميز منه صبور سوى حمد الله على النجاة من أهوال يوم القيامة (والتى صار واثقاً من وقوعها كحد أقصى بعد يومين) ، ثم يقول فى ذعر جنونى:

- إن السيول اجتاحت الصعيد بكامله ، ولا يوجد شبر من أرض مصر يابساً حتى معابد الفراعين العملاقة أغرقتها السيول

وهدمت فيها ، ولكن هذا فى حد ذاته رحمة مقارنةً بالجحيم الـــذى فتح أبوابه على مصراعيها فى وجه قرية النصارى.

كان صبور يعرف أن قرية درنكة بأسيوط ، هى أبعد مكان بلغتـــه العائلة المقدسة فى مصر ، وصار بها دير كـــبير (للعـــدرا) ، وقـــد اصطلحوا فيما بينهم على تسميتها قرية النصارى ، حيث كونهـــا المكان الوحيد فى مصر الذى يتألف جميع سكانه مـــن المســـيحيين فقط.

كان لصبور أصدقاء فى درنكة (لا يقلون عنه شـــهامة) ، زمـــلاء الجامعة فى القاهرة ، وبعض تجار خير الجبل ، الذى يسمونه بالباطل (آثار) ، ولذلك فقد استرعى كلام الشيخ حجازى مسمعه ، حيث الشيخ حجازى كان لا يصف حادث الطوفـــان فى درنكـــة ، ولا كان يصف أهوال يوم القيامة (كعادتة فى كل كارثة قدرية) ، بـــل كا يصف كابوساً واقعياً ، لم يستطيع معه أشد الرجال أن يكـــتم دمعه ، واهم بعضهم الشيخ حجازى بالتهويل وبعضهم بـــالجنون ، وساد الخرس العظيم حينما سمع الجميع نشرة أخبار صوت العرب.

كانت كارثة قنا الحالية ــ ومصــر بأكملــها ــ هــى الســيول وجبروت الماء المسيطر عليها ، فيما كانت درنكة على موعد مــع الجحيم الحق الذى يشوى الجلود ويفحم الجثث بينما سخط السماء يهدر الطوفان مدراراً ، فمن لا يغرق يحترق بعدما اختلطت ميــاه السيول التى اجتاحت القرية بالمواد البترولية الــتى تســربت مــن الخزانات التى أقامتها الجمعية التعاونية للبترول فى مخر السيل علــى سفح جبل أسيوط الغربى.

محرقة جماعية أقيمت على عجالة لأطفال ونساء وشباب وشــيوخ غفلوا فى بيوتهم ، ولم ينج أحد من مئات المنازل المنكوبة الواقعة فى المنطقة المنخفضة على أطراف القرية سوى من شاءت لهم الأقــدار البيات خارج بلدتهم تلك الليلة المشؤومة.

كانت شدة الحريق كفيلة بتفحم كثير من الجثث ، بينما شــاركت السيول بدورها فطمرت الرمال التى حملتها السيول ما تبقــى مــن أطلال البيوت المحترقة بمن فيها تحت طبقة سميكة قــد تزيــد عــن المترين.

كانت الأمطار قد تواصلت طوال الليل فى سباق محموم ، وجهــد كأنه متعمد لإغراق القرية قبل شروق شمس اليوم التالى ، وتمكنت المياه من نخر القاعدة الخرسانية الهشة (جديدة الصنع طبعاً) لأحــد

مستودعات الجمعية فانكسر جداره ، وتسرب منه الوقود أطنانـــاً مختلطاً بالمياه المتدفقة ، وواصل الخليط الجهنمى زحفه الغادر بسرعة وهدوء إلى البيوت الفقيرة المنسية التى لا تحظى بزيارة المحافظ إلا مرة واحدة (عند بدء توليه مهام المنصب) ، وبدأ الحصار ثم الاقتحـــام والتسلل البطيء حتى غمرت المياه المحملة بالوقود ـــ كأنها أنابيـــب النابالم التى ظن اليهود أنها ستؤمّن لهم قناة الســـويس ـــ مســـاحة القرية بأكملها ، وعند الصباح كأنها ساعة الصفر حين قابلت المياه مصدر إشعال ، تحولت المنطقة فجأة إلى كتلة واحدة من اللـــهب المستعر بتوافق زمنى شديد الدقة لا يتأتى إلا بتصريف إلهى.

فى اليوم التالى حضر إلى درنكة الدكتور عاطف صدقى ـــ رئـــيس الوزراء ـــ وسار عشرة أمتار أمام كاميرا التليفزيون متحاملاً على نفسه بسبب المرض وظروف السن ، ثم توقف لتســـجيل حـــديث تليفزيونى أدلى فيه بتصريح للتعبير عن الاهتمام الرسمى والتضامن مع الضحايا ، ويقولون إن الرئيس مبارك فاجأ الجميع بجولة بالطـــائرة فوق قرية درنكة صباح اليوم ـــ الجمعة ـــ ولكن الطائرة لم تستطع الهبوط (نظراً لظروف فنية ، طبقا لتصريحات جريـــدة الجمهوريـــة الصادرة فى الصباح التالى) وأمر ببناء بيوت جديدة وتوزيعها مجاناً فى منطقة قريبة أمر ببنائها وأطلق عليها " درنكة الجديدة ".

كان نهار الجمعة قد انتصف فوجد صبور نفسه ـــ دون إرادة ـــ يهتف فى أهل القرية الباقين كى يقوموا لصلاة الجمعة ، بينما كان الشيخ حجازى يحاول السيطرة على ارتجافة شفته السفلية ، ويصدر لهم تعليماته بإشارات من يديه يحدد بها اتجاه القبلة ، ويأمر النسوة بالتراجع .

وكأنها الفسطاط إبان الفتح الإسلامى تراص جميع أهل القرية الذين وصلوا إلى الجبل خلف الشيخ حجازى فى صلاة شديدة الخشوع طويلة التضرع ، بعد خطبة قصيرة غير مفهومة منه ، وتبعتها صلاة الغائب على أهليهم المفقودين تحت جحافل المياه واستمرت دعواتهم حتى صلاة العصر وعصر كل الأيام التالية فى أيام التشريد.

" إن لعنة الحب الأبدية تكمن فى إتيانه دوماً فى غير أوانه.
لذا فإنه حين يرحل لا يترك للمرء فرصةَ مصادفةِ حب آخر قد
يأتى فى أوان أكثر ملاءمة "

{٨}

يتأمل أحمد جسد بسمة العارى ـــ متناقض التكوين ـــ وهى تهرع إلى الحمام لتسارع بالاستحمام بينما هو ما زال راقداً فى الفـــراش عارياً .. لم يفكر حتى فى التدثر بغطائه.

كانت لبسمة عادة ذكورية مقيتة تشتكى منها النساء دائماً ، فهـــى بمجرد الانتهاء من ممارسة الجنس تهرع إلى الحمام كى تغتسل مـــن عرق الخطيئة ـــ ربما لأن هذا ما يسيطر على عقلـــها البـــاطن ـــ وتأتى دوماً بعدها فى كامل ملابسها لتنظر له نظرات اللوم.

أغلب النساء يشكين من إهمال الرجال لهن بعد انقضـــاء شـــهوتهم بالجنس ، ولكن بسمة تعد الحالة الأولى من نوعها ، ربما لاقتناعهـــا الدائم بإثم فعلتهما لا يعرف ، ولكن مادام بينهما خطيئة ما فهـــو إذن يريد أن يتمتع بخطيئته كاملة ما دام قد اقترفها (واللى حصـــل حصل) ، كان أحمد يحلم مع بسمة بالوصول إلى نشـــوة الجمـــاع (الأورجازم) بل كان يحلم بما بعد الأورجازم.

يحلم بحضن دافئ طويل يجمعهما ، قبلة امتنان حنون يتبادلانهـــا فى شقاوة ما بعد الجنس ، ولكن بسمة كانت دوماً مصدراً للســـعادة

الناقصة ، للمتع غير المكتملة ، كانت إذا تكبدت عناء طبخ وجبة له تنسيه عناء حياة العزاب أفسدت صنعها ، إذا منت عليه بجسدها ليناله أشبعته لوماً وتانيباً.

بسمة..

التى ضيقت عليه الخناق حتى استسلم لشباكها ، التى أغوته بمباهج الزواج ونعيمه بدلاً من عذابات (العزوبية) والوحدة التى يعيش كافة تفاصيلها.

بسمة ..

التى أعطته كثيراً ، وتنازلت عن الأكثر كى تظفر به.

بسمة ..

التى تبدأ بالعطاء وتنتهى بالمن والأذى والتقريع.

بسمة التى عادت بكامل ملابسها تستند على إطار الباب وتنظر إليه رافعة حاجبها الأيسر ممتعضة الشفتين فى لوحة فنية دلالتها (قوم يا موكوس).

لم يتبادل معها أحمد ثلاث كلمات وهو يرتدى ثيابه ويتسلل معها للشارع ويتخذان طريقهما لمترلها.

كان أحمد ينظر إلى ساعته فى انتظار بدء وصلة (العكننة) الخاصة ببسمة بعد كل لقاء جنسى.

كانت أنثى شديدة الغباء تفتقر دوماً لاختيار مواقيت طلباتها، بل كانت تفتقر اختيار ألفاظها ، كانت تلقى فى وجهه (دانات مدفع م / ط) وتتوقع منه أن يتقبلها بمنتهى الهدوء ويرد عليها بمنتهى المنطقية!

و لم تكذب بسمة خبراً فبمجرد وصولهما إلى (محطة مصر) حتى انفجرت فيه:

- ها وبعدين هنتنيل كده لحد إمتى ؟

وتستمر ..

- بقالنا سنة ع الحال ده وانت مش فالح غير إنك تتهبب معايا وتنبسط وخلاص، ولا عمرك فكرت تخلص جوازتنا النحس دى ولا هتفكر.

وتستطرد ..

- وتتعب نفسك ليه؟ ما أنتا مبسوط كده بتاكل وتشرب وتنام معايا ، على إيه بقى نتجوز ونبقى زى بقيت الخلق المحترمين؟

يتنهد أحمد ويشعل سيجارة أمام نظراتها النارية ولا يعلق ، تلك

البائسة لا تعرف كم يعانى بسببها ومن أجلها.

كان أحمد هائماً فى حب مستحيل لا فكاك منه حتى ظهور بسمة و(تنطيطها زى فرقع لوز) حتى أقنعته بالزواج منها.
كانت أشد منه فقراً ، شديدة القبح لن تجد كلباً أجربَ يتشممها ، ظن أحمد أنها ستستميت فى الحفاظ عليه وتضعه فى عينيها ، كان يملك شقته الضيقة التى تقبلت السكن فيها بعد جهد بسيط ـــ فقد كانت تريد الخلاص من جحيم أبيها ـــ ، كان أحمد يملك من المال ما يكفى لخطبتها وأيضاً كان يملك من الفرص ما يزوجه منها خلال عامين على الأكثر.

فقط اشترطت عليه تجديد شقته بالكامل بكافة أجهزتها الكهربية ، وإقامة حفل زفاف كبيراً فى مسرح وليس فى الشارع ـــ كالعادة ـــ مادامت قبلت وتواضعت ووافقت على السكنى فى هذا (الحُق) الضيق.
بسمة تستمر فى الصراخ والنواح والتقريع والسباب أحياناً ، وهو لايعيرها أذناً لكونه هائماً فى وديان أخرى لم يخبرها بشر سواه.

كان أحمد السيد يحيا فى زمان ما حياة أخرى بروح أخرى ورفقة أشخاص آخرين ، إنه يشعر أحياناً بأنه فى كابوس طويل لغيبوبة عميقة يتمنى الإفاقة منها.

كان فى السابق يعمل سائقاً خاصاً لمدام فاتن مديرة واحدة من أكبر شركات الملاحة المملوكة لزوجها ، كان يكسب من ورائها كثيراً وكثيراً جدا ، كان يأكل طعاماً يسمن ويغنى من جوع ، يرتدى ثيابَ زينة فى ذاتها، يرتاد أماكن تثير الحقد فى نفوس أقرانه ، ويقابل يومياً أروع مخلوقات الله على هذه الأرض البائسة ...

ليلى .

ليلى إبراهيم سكرتيرة الشركة ..

كتلة من النشاط والحيوية والكفاءة ، كائن يقدس العمل والنجاح ، ليست كباقى المصريين فى الطبع وإن كانت من أجملهم فى الملامح.

ليلى ..

الصارمة مع زملاء العمل كأنها أكثرهم ذكورة ، شديدة التعاون كأنها أم الجميع برغم حداثة سنها نوعاً ، أنيقة الملبس مبهرة الألوان كأنها (كلوديا شيفر).

ليلى ..

شديدة الرقة والعذوبة ، التى تجلس ثمانى ساعات على كرسيها الجلدى فلا ينخفض مليمتراً واحداً.
التى إذا سقط عنها هذا القناع سهواً أشرقت منها شمس الأنوثة فى سطوع يعمى نظر الحالمين.
ليلى ..
ذات أجمل عينين ينبضان بالحياة فى العالم ، خمرية اللون طويلة العنق مرفوعة الأنف الدقيق فى شمم كأنها نفرتيتى شخصياً فى ملابس (مودرن).
كانت مخلوقاً أصلياً ليست (تايوانى) كأغلب النساء من حوله ، كانت صادقة المشاعر لا تعرف الزيف ، لا تدعى بل تحيا ذاتها وليس ذات أخرى.
كانت ليلى زميلته فى العمل التى يراها مرتين أو ثلاث خلال اليوم ولا يتبادل معها سوى كلمات الترحاب ساعة الصباح ، كان هذا المخلوق رائع التكوين ملكاً لرجل آخر.

كانت تجهز لحفل زفافها بعد شهور قلائل وكان كل زملاء العمل يتعهدون لها بفعل الأفاعيل فى (ليلتها) ، فهى محبوبة بالفعل لديهم جميعا ، كلهم يتمنى أن يرد إليها ولو القليل من خدماتها الكثيرة

المستعصية على الحصر.
أحمد وحده كان يمارس دور غراب البين وحيداً ، يتسلل إلى الحمام كى يدخن سيجارة يفنث مع دخانها سموم حقده على هذا الوغـــد الذى هو حتماً لا يستحقها ، لن تجد ليلى رجلاً على هذا الكوكب يحبها ويسعدها غيره ، كان يهيم بها كأنه مســـحور مـــن شـــطار الحواديت ، كأنه (مسبى) ولا يملك له أحد (الفاكك والفاكوك).

كان لا ينظر إليها تقريباً خشية أن تفضحه نظراته ، ولكن ليلى .. الذكاء الأنثوى فى هيئة امرأة كانت تنظر إليه نظـــرات تشـــجيع ، وأحياناً شفقة ، وما أثار جنونه نظرة الحسرة التى رمقته بها ذات يوم وكأنها تواسيه ونفسها على لقاء فات أوانه منذ دهور.
لم يحتمل أحمد هذا الصراع الداخلى الذى يمزقه وهى تشرق أمامـــه كل صباح وتغيب مع ظهور المساء لتنير ليل شخص آخر.
شمس مبهرة الحسن تتألق فى ثوب بديع الألـــوان شـــديد الأناقـــة والجاذبية.
أربعة أشهر عاشها فى هذا العذاب ، ضاحكاً فى وجه كل من يلقاه، ناكراً سره عن الجمع بما فيهم أوزو كاتم أسراره ، وكأنه نمـــوذج واقعى لـــ (العذاب فوق شفاه تبتسم) حتى اقترب موعد زفافهـــا

وزاد الطينة بلة (حادثة الأتيليه).

فى ذلك اليوم الغريب استدعته مدام فاتن قبل انتهاء فترة العمل وطلبت منه الذهاب لبيت أزياء شهير كى يتسلم فستان الزفاف الذى تم تفصيله خصيصاُ لعروس الشركة ، والتى قامت المدام بتحمل نفقاته باعتباره (النقوط) ، وهكذا ذهب فى رحلته يسب ويلعن الجمع بما فيهم هو نفسه حتى عاد بالفستان المغلف ـــ لحسن حظه حتى لا تنفجر شراينه ـــ وذهب لمكتب السكرتارية كى يسلمها الفستان .

لا يعرف أحمد هل يحزن أم يفرح لما حدث ؟ مشاعر غزيرة شديدة التناقض انتابت قلبه الملتاع وليلى تصافحه وتضغط على يده ضغطة مشجعة وتقول له بصوتها ملائكى النبرات :

- ربنا يسعدك ببنت الحلال اللى تستاهلك.

كانت لمسة يدها تلك آخر ذكرى لها فى قلبه ، فقد ترك عمله من يومها حتى إنه استقال واستلم أوراق تعيينه من القبطان فى جليم ، لم يقو على الذهاب إلى مقر الشركة معللاً ذلك بخلافه مع (شريف فوزى) المحاسب الذى رفض اعتماد فاتورة (الجنوط) لأنها ليست من التوكيل.

وهكذا وجد نفسه يتسول عملا حكوميا ما ـــ لادعائـــه أن هـــذا سبب تركه عمله ـــ حتى صار سائقاً فى تلك المدرسة الإعدادية التى اقتنصته منها بسمة.

بسمة التى لا يدرى كيف وُجدت فى حياته ؟ ولا يـــدرى كيـــف ستبقى فيها بل لا يدرى حتى كيف يتخلص منها إذا أراد ذلك ؟.

كانت الأفكار تتصارع فى ذهنه ، تلهيه عن حديث بسمة (الممتع) حتى وجد نفسه فجأة أمام مترلها ، فوعدها بفعل كل المستحيلات المطلوبة غداً بعد انتهائه من عمله ، وودعها وهو يعود أدراجه لمترله بينما لا يزال يتذكر ليلى ويتحسر على فقدانها.

" إن المرأة التى تُفسخ خِطبتها قبل زفافها بأسبوع على رجل

ميسور الحال يهيم بها حباً ..

لن يمنعها من إحراق ذاتها (بوابور الجاز) سوى طبيب نفسى

من طراز (أدلر) "

{٩}

بعد خطبة زادت عن العام ، صنعت خلاله كل ركـــن فى مـــترل الزوجية كما كانت تحلم ، وبعدما فصلت فستانها الأبـــيض كمـــا اختارته من كتالوج العام، و طبعت دعوات الزفاف وشـــرعت فى توزيعها بالفعل ، وبعد تهشم أحلامها بهدوء يبدو مبتذلاً ، وخيانـــة باردة لأمانيها فى وقت كانت تظنها فيه حقائقَ مؤكدة.

وبعد عامين ونصف من مضادات الاكتئاب ، وأربعة وعشرين كليو جراماً زائدة جعلتها أقرب لغسالتها (الفول أوتوماتيك ذات ال١٨ برنامج) .

بعد هذا كله قررت ليلى البقاء والعودة إلى مدينة الملاهى العملاقـــة المسماة الحياة، ولكن بالصورة التى تستحقها .

قررت تحقيق كافة أحلامها بيديها دون الاتكال على رجل تعلـــق عليه آمالها ، قررت غض النظر عن سنها الخطر إلى حد ما والـــذي شارف على كابوس نساء مصر (الثلاثين) ، وقررت الإصابة بسعار الحياة والاستمتاع بكل لحظاتها.

أعادت اكتشاف ملابسها ذات الألوان البهيجـــة والـــتى كانـــت تدخرها لعش الزوجية ، وأرغمت نفسها على نظام غذائى قـــاس ،

وتمارين رياضية أشد قسوة أعادت لها جسدها تقريباً كما كانت تعرفه ، وخرجت فى رحلة البحث عن عمل تبذل فيه المزيد من الجهد البدنى ، مما يعيد تشكيل قوامها ، وفيه المزيد من الجهد الذهنى الذى ينجيها من أفكارها الكابوسية بالرغم من اعتراض أبيها الذى تمنى لو قتل ذلك الوغد الذى ذبح ابنته الأثيرة بسكين من المنطق اسمه (إن فترة الخطوبة هى اختبار ممكن تنجح فيه العلاقة أو تفشل) و (بنتك جوهرة ألف مين يتمناها بس أنا هاظلمها معايا فلازم أسيبها للى يستحقها) ، يقول هذا وهو يخلع دبلتها من بنصره بمنتهى الهدوء ويسلبها عاماً وأكثر من المعارك والأحلام والمؤامرات حتى صار زواجه من ابنته مجرد ترتيبات واستعدادات لم تكتمل بعد. ابنته التى لم تعرف سر تخليه عنها بدون مقدمات ولا تمهيد ولا حتى مشاحنة صغيرة تحميها من الجنون.

ابنته ليلى التى احتملت شهراً فى صبر ظلت تلوم نفسها على ضياعه من يدها حتى صدمت بزواجه من ابنة ولى نعمته العانس التى تكبره بثلاثة أعوام والتى كتب أبوها باسمها معرض السيارات الذى يديره (المحروس) ، والتى تزوجها فى ذات الشقة التى اختارت هى كل لون فى ديكوراتها ، التى اختارت كل قطعة من أثاثاتها ، التى حلمت بتأسيس مملكتها الخاصة بين جدرانها.

ليلى الرقيقة الحنونة التى ورثت عن أمـــه ـــ جـــدتها ـــ ، عيناهـــا الذكيتان الرائعتان وقلبها المتسامح العاشق للخير.

التى تركت عملها فى شركة الملاحة براتب يعادل راتبه هو ، وهـــو مدير عام بشركة الكهرباء ، من أجل وغد انتهازى غير مكتمـــل الرجولة لم يستطع الاعتراف لها بسبب هجره لها.

ليلى ..

التى أصبحت الآن (روبوت) تأكل وتتحدث وتحيـــا بميكانيكيـــة ، تعترك الحياة كأنها أم كلوم تعول (نص دستة) أيتام ، تفتعل السعادة فى ملابسها الأنيقة وعطورها الفـــاخرة والخراطهـــا فى حيـــوات صديقاتها الشخصية وكأنها رئيسة جمعية للمرأة العاملة.

ليلى ..

التى تبدو الآن أكثر شبهاً بأمه المسيطرة المستقلة (أم الوِلْد) الأرملـــة ذات الأصل الصعيدى التى ربّت خمسة أشقاء ذكور دون أب بعـــد موت أبيه فى طفولتهم المبكرة وهو فى حصار (الفالوجا).

ليلى التى يحبها أكثر من شقيقتيها ـــ وليسامحه الله فقلبه ليس بيـــده ـــ ولا يرى النور إلا فى ابتسامتها العذبة ولا يعرف الـــدفء إلا فى عيني أمه المطلة من وجهها الأسمر الحنون.

" إن الكارثة التى تفتح أبواب الجحيم فى وجوه كثيرين وتختار محظوظاً واحداً لتهبه (الجنة) ، إن حدثت فهى تحدث مرة واحدة فى العمر ، أما إذا ما تكررت المعجزة فربما فى تكرارها هذا محاولة لتصحيح الأوضاع الناجمة عن المرة السابقة "

{١٠}

حين جاء الزلزال فى خريف قاتم كى يتستر على مقتل البكرى ويهب لصبور بلقيس (بملحقاتها) ، الذى امتن كثيراً لتلك الكارثة و(صان النعمة) هذا شيء ، ولكن أن تجيء السيول فى خريف أشد قتامة كى تمنحه (كنوز قارون) ، فهذا شيء آخر لا يستوعبه عقله، ويرهبه رهاب الموت.

كان صبور يجلس منكمشاً فى كرسيه ، مرتعباً من أفكاره وأحداث حياته غير المستساغة على الإطلاق ، بينما بلقيس تدخن النارجيلة الفاخرة وتنفث فى وجهه دخاناً بنكهة التفاح ، مستمتعة بذعره واحتياجه المتكرر لها كأنه ـــ دائماً ـــ صبى مذعور يخوض تجربة (التزويغ من المدرسة) والتدخين على المقهى لأول مرة مع رفقاء السوء.

كان وجه بلقيس الأبيض المستدير يبدو ساطعاً ، يتلألأ كبدر ليلة التمام ، وزرقة البحر الخلابة تصنع له أجمل خلفية طبيعية للوحة تنطق كل جنباتها بالجمال الربانى.

كانا فى مقهى بجوار الفندق فى انتظار قدوم (السمسار) بعد أن رتبت بلقيس لهذا اللقاء.

بلقيس ـــ رجل البيت ـــ التى تخطط وتقرر وتنفذ ولا يسعه أمامها سوى الانبهار بأفعالها والتنعم بنتائجها.

ظل صبور يتململ ويتواثب فى قلق يزيد من إمتاع بلقيس لدرجة إطلاقها ضحكة (مصهللة) ، كادت تلم عليهم الخلق لولا دخول أحمد السيد من البوابة وتجواله ببصره بحثاً عنهما.

بعد انقضاء غمة السيول ـــ بعدما أعادت رسم خريطة الصعيد ـــ وبعدما تحولت (كلاحين القبلية) إلى (كلاحين الجبل) بمعجزة إلهية ، وبعدما أقامت الحكومة (قرية السيول) بجوارهم وحشرت فيها الناجين من الطوفان.

كان الرعب يسيطر على قلب صبور بعدما هدمت السيول جزءاً كبيراً من جدار الكهف المخفى بداخله البكرى ، وصارت مقبرته قريبة جداً من أيدى العابثين ، خاصة وأن الكهف صار حالياً فى ساحة القرية بعد التغيّر الجغرافى الجديد.

كانت بلقيس ـــ بعدما عثر عليها وعلى البنتين واستقرت الحال بالجميع ـــ هى صاحبة الفضل فى ابتناء دار صغيرة على عجالة

تستند على جدران هذا الكهف وتجعله جزءاً منها ، مما يحميهم من عبث أهل القرية به ، خاصة وإن دار نزهة هـدمت مـن جـراء السيول، مما دعا بلقيس أن تدعوها وزوجها للعيش فى دار أبـيهم المبنية (بالمسلح) ، وتستقر هى وصبور فى الدار الجديدة على الجبل مع باقى المشردين من القرية.

ولكن هذا لم يكفِ صبور ، صحيحٌ أنه قد هدأ نوعاً لبقائه حارساً مقيماً على سره ، لكنه ما زال قلقاً على جثة البكرى التى صـارت على بعد متر واحد عن الأرض المطروقة ، وقد يحـدث أى شـيء يخرج المدفون ويكشف الستر ويلقيه فى السعير ، وهكـذا فى ذات يوم هادئ ـــ بحجة تجديد الدار ـــ بعد مرور أكثر من العام علـى الحادث قضاه يتلوى ، قام صبور بالتنقيب عن قبر أخيه وراح يحفر الأرض الحجرية من الجهة الشرقية ـــ التى كشفها السيل ـــ بعـدما اختفت الفتحة المعتادة للسرداب تحت وابل من الصخور المنـهارة والأحجار المتكلسة.

تتنهد بلقيس وتميل بوجهها على أحمد ـــ بحجة البـوح بالسـر ـــ ولكنها كانت تزكم أنفه برائحتها العطرة ، وتملأ بصره بنضـرتها ،

كل هذا أمام عينى صبور الذى يكظم غيرته ـــ فلا أحد يقدر على بلقيس ـــ وتقول لأحمد فى صوت مشبع بالغنج ، طافح بالدلال :

- لجينا يا خال سلم ضيّج يادوب يساع راجـــل إسْـــفَيفْ ، والسلم ده يودى لسرداب ف آخرته جدار صخر ، جينـــا نهدوه ما أنهد ، يادوب بس نقبنا فيه طاجة صغيره طلينـــا منها لقينا أوضتين ف ريح بعض ، الأولى باينة منجـــوش عليها تصاوير سمس وطير وشخابيط وحاجـــات إكـــده. والتانية مخفية يلزم هدد الجدار عشان نوصلولها ، بس باين ع بابها إحجره مطيولة على كل حجـــر عروســـة بلـــون لاسفلت ونقوش بلون الدهب.

كاد صبور يموت ذعراً بسبب هذا الاكتشاف ، وظل يلـــح علـــى بلقيس ويرجوها أن (يردم) هذه الفتحة بما فيها ، خاصة وأنه لم يجد جثة البكرى أو هيكله العظمى ـــ لمرور سنوات علـــى دفنـــه ـــ وهذا معناه أن لا أحد سيجده غالباً.

كانت بلقيس تتنمر ، وتصرخ فى وجهه أن (يسترجل شوى) ، هذا الكتر فرعونى الطابع يحمل لصاحبه وعداً بالثراء يجعله يزدرى العالم من بعده.

يقول لها صبور إنهم يملكون كثيراً ، يقول لها إنها (داهية) تؤدى إلى هلاكهما وهلاك كل من يشاركهما ذلك ، يتوسل إليها أن تكتفى بأموالهما المكدسة ولا تجعل الطمع يوردهما التهلكة.

فتنهره عن العويل كـــ (الولايا) ، إن هذا الذى معهما ســـيجعلها إمبراطورة تشترى قصرا فى أجمل مدينة فى أوروبا ، تسافر لتطـــوف أرجاء العالم ، تزين مفاتنها بأغلى الثياب ، تصون نضارتها بأفضـــل مستحضرات التجميل ، تحيا حياة نجمات هوليود بل حياة الملكات فى دولة متقدمة.

كان صبور يتعلل بموت كل أصدقائه (تجار الآثارات) فى درنكـــة ، يتعلل (بالتأبيدة) التى يقضيها محمود أبو طه فى طره ، يتعلل بأنهم لا يعرفون طريقاً لبيع هذه الكارثة ولا يوجد من يـــؤتمن علـــى ســـر كهذا، يتعلل بأنه لابد من بقاء السر فى طى الكتمان حـــتى يـــولى زمانهم على خير.

كان الذعر يقتل صبوراً بينما الفضول يأسر بلقيس وما كانت تتعقل حتى ترى الكنز المدفون وتعرف قيمته ، وربما كان يسيطر عليها أكثر من الجشع والتعطش لمزيد من الثراء.
وحتى دون ذلك كله ما كانت بلقيس سترضخ لصبور ولا لأى مخلوق غيره، بلقيس تفعل ما تريد وقتما تريد ولا يقدر أحد على قمعها.

كانت سيارة البكرى هى الدليل الوحيد على وجوده بالقرية ليلة مقتله ، ولهذا وفى فجر اليوم التالى للحادث قادها صبور إلى الإسكندرية ، وتركها في مرآب ما هناك عرف طريقه حينما كان يقضى أيام الصيف مع زملاء الدراسة بجواره ، كان يترك فيه سيارته البيجو ويستلطف صاحبه كثيرا ، وهكذا ترك له السيارة بحجة البحث عن مشترى جيد لها وطلب سعراً مبالغاً فيه حتى يعرقل البيع ، واستمرت الحال هكذا حتى أتى الوقت الذي ملك فيه الأوراق القانونية التى تتيح له التصرف فى ممتلكات البكرى ، فتظاهر بالرضوخ لضغوط عاطف ــ صاحب الجراج ــ لخفض السعر وباعها بالرغم من ذلك فى صفقة جيدة بالفعل ، وكان الذى

تولى إنهاءها هو ذلك الشاب (ولِد أخت أبو عابدين) المدعو أحمـــد السيد.

كانت بلقيس ـــ كالعادة ـــ هى مخطط العملية ، ولذلك حينمـــا رآها عاطف أصابه ما يصيب الرجال جميعاً ، صار خاتماً فى إصبعها الانسيابى حريرى الملمس ، وراح يخر أمامها بأسرار تذهب بـــه إلى السجن بغير عودة ، ومن ضمنها (شغل) فى عملات برونزية مـــن العهد البطلمى ، والذى قام به بمعونة أحد قباطنة السفن أصدقائه ، وبعلم أحمد هذا ولكن دون مشاركته.

كانت بلقيس وقتها قد قابلت أحمد الذى ـــ ويـــا للعجـــب ـــ لم تندهه النداهة لمرآها ، بل ربما نفر منها وكره تواجدها طوال فتـــرة بيع السيارة ، كان تسلط بلقيس وسيطرتها المطلقة على كل رجـــل يظهر حولها يثير رعب أحمد ، يهين رجولَته تحولُه من رجل إلى مجرد مفتاح معلق فى سلسلة مفاتيح (الست) بلقيس تســـتخدمه وقـــت اللزوم لفتح باب ما مغلق فى وجهها ، ثم تلقيه فى بالوعة الصـــرف بتلذذ ماسوشى الترعة.

كان هذا يرضى صبوراً بشكل كبير ، ولكنه أثار غضب بلقيس وسخطها بصورة مبالغ فيها حاولت جاهدة إخفاءها عن صبور ولكن هيهات ، كان يهينها حقاً انكسار فتنتها أمام كبرياء رجل ، يجرحها مقاومة شاب يافع ـــ تكبره بعقد من الزمن على الأقل ـــ لسحرها الأنثوى فاتك المفعول.

ولكن بلقيس لم تترك هذا يؤثر على العملية ، وإن ظلت تضمر ذلك فى جنباتها حتى صرحت به الآن فقط ، كان أحمد السيد هو أول اسم اقترحته ليتولى مهمة بيع (الكتر) ، باعتبار أنه (اللى ليه سكة ف تصريف الجرشينات الخواجاتى) ، لابد له من تصريف فى (آثارات الفراعين) ، وهكذا جرجرت صبوراً خلفها كالجدى حتى أجلسته أمامها وهى تتفاوض مع أحمد ، وتحاول أن تقهره أمام نظراته المشتعلة وكأنها أتت خصيصاً لرفع علمها على أرض أحمد السيد ، أتت لإذلاله و(كسر مناخيره) ، وليس (للمصلحة) ، وبات وشيكاً أنها لن (تعاود) النجع حتى يمزق أحمد ملابسه ويعدو ليلاً فى (غيطان القصب) ينادى اسمها وينوح على قلبه الكسير ، ويصير سيرة شعبية فى الوله يغنيها الرواة على ربابتهم فى ليالى السمر.

" إن المرء لا يدرك قيمة الأشياء إلا بعد فقدانها ، ويقسم ألا يتركها ترحل عنه ولو بالدم إذا ما صادف وتكررت فرصة حصوله عليها ، ولكن عندما يحدث هذا فعلياً فغالباً ما يحنث بقسمه دون أن يبذل أى جهد ولو بسيط فى السعي وراءها "

{١١}

كان أحمد يقطع الشوارع فى حنق بالغ ، يلعن فى سره كل شيء ، وأحياناً يعلو صوته بالسباب رغما عنه فينظر إليه المارة شـــذراً ، أو شفقةً على عقل (الجدع) ، يمشى فى توتر متخبطاً ، فيصطدم بالمارة ليزداد اشتعالاً ويتورط فى مشاجرات عدة مِصرية الطـــابع تحتـــوى على كثير من (الجعجعة) دون تلاحم حقيقى أو خطر يهدد أياً من أطرافها.

كانت بسمة قد ثارت فى وجهه كعادتها ، واستأنفت حلقة جديدة من حلقات مسلسل (ربنا يخلصنى بقى) ، وزادت هذه المرة لدرجة جعلته يتركها فى وسط الشارع هكذا فجأة ، بدون أى تمهيد ولـــو حتى بكلمة تذمر منه ، وراح يبتعد فى الاتجاه المعاكس بسرعة أقرب للعدو كأنه لا يعرفها و لم يرها من قبل وسط نظراتها المذهولة.

كانت بسمة نموذجاً للأنثى (النكدية) ، (الزنانة) التى لا تمل أبـــدا تكرار ذات الحديث ، لا تمل أبداً إحصاء مرات فشله على مسامعه،

لا تمل أبداً إحصاء مرات مسانداتها إياه و(تعايره) بالصغيرة قبل الكبيرة .

كان أحمد قد تورط معها فى علاقة جنسية كاملة هو الذى سعى إليها ـــ ربما ليزيد من تورطه معها ـــ وبعدما رضخت لمحاولاته التى استمرت عامين وأكثر ورضخت أخيراً لاحتياجها الفسيولوجى ، منحته ذاتها فى تمثيلية متقنة منها تجعله (غرر بها) ، ومنذ ذلك الحين بدا وكأنها قد تذكرت فجأة أن جيرانه يرمقونها بنظرات الاحتقار لكونها تزوره فى شقته وهو أعزب وحيد ، تذكرت فجأة أن خطبتهما تعدت العامين دون تقدم ملحوظ ، تذكرت أنه يهملها وينصرف عنها أياماً لا تعلم عنه فيها شيئاً ، تذكرت ـــ وهذا الأهم ـــ أنه لابد أن يتزوجها بأسرع وقت ممكن وظلت تضغط عليه حتى تكاد تسحقه.

كانت بسمة قد أدركت خلق أحمد وديدنه جيداً ، أيقنت أنه منذ وقع بها فى لحظة ضعف لعينة من كليهما ، وهو يلوم نفسه عشرات المرات يومياً ، تدرك أنه لم يرحم ذاته جلداً على خطيئته ، وأنه ذهب إلى أبيها مرات ومرات يتوسل له أن يقبل عقد قرانه عليها

ولكنّ أباها رفض فى عناد البغال ، وأصر على أن (كتب الكتاب والدخلة ف يوم واحد) ، راح أحمد يختلق الحجج ، وأبوها يختلق الأعذار ، كان على قناعة داخلية بأن هذه هي السبيل الوحيدة لتوبته ، كان حتى فى أزمتهما المشتركة تلك يفكر فى ذاته هو ، خلاصه من وزره هو ، لم يكن يهتم بها من قريب أو بعيد ، حتى يأس الفتى من كثرة المحاولات الفاشلة ، فذهب بها إلى محام ما حرر لهما عقد زواج عرفيًا كالموضة بحضور شاهدين من معارف أحمد ــ الذين لا يقابلهم إلا نادرًا ــ وهكذا أراح ضميره إلى حد ما ، وإن ظل يحلم باليوم الذى يعقد عليها عقداً شرعياً ينجيه من عذابات سقر .

ربما بسبب هذا أدركت بسمة أنها ملكته للأبد ، وأنه صار عبدها المطيع ، تجلده بلسانها ــ حربائى التصميم ــ فلا يملك منها فراراً وهكذا كانت (تمرمطه) مساءً وتلتقيه فى المدرسة صباحاً بابتسامة مشرقة لأن (اللى فات مات وما يبقاش قلبك أسود بقى).

كان أحمد مستمراً فى صب اللعنات على كل الموجودات فى الشارع .. بدءاً بالقطط الضالة وانتهاءً بعواميد النور المظلمة فى

التاسعة مساءً فى شارع رئيس من شوارع المدينة ، حتى انزاحت الظلمة بغتة ، وسطع البدر مهيباً جلياً على الإفريز المقابل.
صحيح أنه يبدو شاحباً لكنه ما زال بدراً وما زال فياضاً بالضوء والأحلام ، فجأة انصرفت عنه شياطين الغضب وحفته ملائكة التنعيم لتلقيه إلقاءً إلى الإفريز المقابل ليجد نفسه أمام (ست الحسن)، وسندريلا الأمل .. ليلى .
ليلى ..
بطلة كل حلم يراوده ليلاً ، وكل وهم يحياه صباحاً .
ليلى بذات عينيها السوداوين الواسعتين ، كأنهما دوامتا بحر فى عتمة الليل تتربصان بصياد غاف لتغرقانه ، وتعمد أحمد السيد أن يصير هو ذاك الصياد.

كانت إشراقة وجهها لرؤيته المفاجئة ـــ وكأنها كانت تبحث عنه بين وجوه العابرين ـــ أكبر علاج له من إهانات بسمة القاسية ، كانت ابتسامة ليلى الكاشفة عن أسنانها النضيدة ناصعة البياض تنسيه واقعه المليء بأوجاع الفقر، وضعف بنيانه حديث العهد ، وعذابات الحياة بشراكة جلاده المسمى بسمة ، كانت تمنحه الغد

المسلوب بيد اليوم الباطشة لتهدهده كالرضيع حتى يقـــر عينـــاً فى حضرة روحها الحنون.

كانت تلك أول مرة يلقاها فى الليل ، وكانت ترتدى الســـواد وإن احتفظت بلمعان سنها الباسم مما جعلها غريبة بعض الشـــيء عـــن صورتها الأصلية ، فقد كانت ليلى بالنسبة له (ابنة النهار) دائما مـــا كان يراها والشمس مشرقة ساطعة تتوسط كبد السماء ـــ حـــتى ولو كانت الثامنة من صباح يوم شتوى ملبد بالغيوم ـــ ربمـــا لأن شمسه الداخلية كانت تشرق لمرآها .

كانت تعشق الألوان وثيابها دوماً زاهية مبهجة متناغمة كأنها لوحة فنية حتى أنه كان يشعر بالحسرة لمرأى ملابس بسمة التى تختار لهـــا ألواناً عديمة الاتساق مع بعضها ، وكأنها تعانى من خلل ما بالشبكية يجعلها تختار دائماً القمئ والمنفر والمجهد للعصب البصرى

كانت ليلى هى ليلى ، ذات الدفء الذى يطمئن قلبه لمجرد لمـــس أناملها فى مصافحة خجلى ، وإن كانت فى نسخة أقـــل بهـــاءً ، لم يتبادل معها غير جمل معدودة خاطفة لم تستغرق أكثر من دقيقـــتين عرف خلالهما أنها تعمل حالياً فى أحد المصارف الأجنبية ، وعرف

أيضاً أى الفروع ، وعرف ـــ وهذا الأهم ـــ أن أحقاده أتت أكلها أخيراً ، وأنها قد فسخت خطبتها وصارت حرة كاليمامة.

لم يدر كيف تركها تمضى وكيف عاد إلى مترله محلقاً فى سمـــاوات الحلم ، غارقاً فى بحور الأمل ، راضياً عن ذاته ، عن الشارع ، عن المشاة ، عن الكون بأكمله ؟.

كان منتشياً نشوة لم يخبرها فى الجنس ، كان سعيداً كأنـــه وجـــد الحقيبة السامسونايت أياها ، لم يستطع نوماً فى هذه الليلة وروحـــه ترفرف بجناحين من حب فى فضاء واسع رحيب لا يحده ســـقف ، لهذا صعد مهرولاً إلى السطح حيث السماء تتزين بالنجوم فى مشهد ينبض بالرومانسية ، وحيث المشهد البانورامى الخـــلاب لشـــوارع الإسكندرية باهرة الحسن فى الشتاء ، وحيث الـــدفء الإنســـانى متمثلاً فى العزيز أوزو.

لم يكن أوزو فى مترله تلك الساعة فعاد أحمد إلى شقته منتشيا بخمر الحب ، وذهب ليلقم جهاز الكاسيت شـــريط (مـــن أول لمســـة) أحدث ألبومات منير ، كان من القلائل الذين يهوون سماع محمـــد منير ، حيث السائد أغانى محمد فؤاد وإيهاب توفيق ومصطفى قمر وحميد الشاعرى، وبالطبع عمرو دياب بعد النجاح الساحق لألبوم (راجعين) ، وهكذا دخل أحمد عالم العجائب كأنه (أليس) مع (يا

حبيبى عود لى تانى) ويمزقه الحنين للوصف الرائع لـــ (ليلى) الـــتى حتماً كان يعرفها الشاعر مجدى نجيب ليجعلها (ضحكة الرمان).

ظل الكاسيت القلاب ـــ يابانى الصنع فما كان ينحط لاســـتعمال التايوانى ـــ يكرر وجهي الشريط على التوالى ، حتى فطـــن أحمـــد السيد فجأة لكونها السادسة صباحاً.

كان قراره حاسماً ، فلم يكن يومه يحتمل بسمة ، ولا المدرسة ، ولا مهاترات مديرها المتعجرف الذى يظن نفسه ولى نعمتـــهم بـــرغم كونه موظفاً مثلهم ، يرتجف من تقارير المفتشـــين ، وتعليمـــات (كاميليا حجازى) مديرة الإدارة التعليمية.

وهكذا عرج أحمد على المقهى كى يتناول طبقاً من الفول الطـــازج من عربة بغدادى ، ويجرع الشاى بالحليب ، ويدخن قليلاً وبعدها يتوجه ماشياً إلى البحر كى يستقل أى مشروع ـــ ميكروبـــاص ـــ لوجهته ، كان قراره الذى لم يفكر فيه مرتين ولا حتى مرة واحدة.

هو أن يزور ليلى فى عملها ويحاول إعادة الود ، وهكذا وجد نفسه فى طريقه إلى (رشدى) حيث بنك (الحظ) و(السعادة) الذى يحلـــم بتحويله إلى بنك (الأسرة السعيدة) ذات يوم.

لكنه فى منتصف الطريق عدل عن الفكرة لكونها لم تتجاوز العاشرة صباحاً، ووجد الأفضل أن يذهب فى آخر ساعات العمل ليقضـــى

معها وقتاً أطول ، وأكثر حرية بعد انصرافها ، فنزل من المشـــروع وتابع السير حتى وجد نفسه فى الإبراهيمية ولا وجهة لديه يقضـــى فيها وقته حتى الظهيرة ، حتى لاحت له سينما أوديـــون فتحـــرك باتجاهها.

كانت سينما أوديون كما خبرها طوال أعوامه الفائتة (مركزاً ثقافياً هندياً) ، لا تعرض فى حفلاتها سوى أفلام أميتاب باتشان ، هـــوس المصريين فى تلك الفترة، ولكن دوام الحال من المحال ، لسبب غـــير مفهوم أقبل الجمهور على الأفلام الهندية بصورة مرضية تثير علمـــاء الاجتماع وصارت (الشعلة والجبـــابرة) و (مـــارد) و(التوأمـــان) مقررات دائمة على منهج كافة وسائل الرؤية ، سواء أفلام السينما أم أشرطة الفيديو أم حتى القناة الثانية طوال أيام العيـــد ، وكمـــا تصاعد المد فجأة تراجع الجزر أيضاً فجأة فانصرف ذات الجمهـــور عن ذات الأفلام دون أية مقدمات حتى وجد صاحب هذه السينما نفسه فى مأزق حقيقى وشارف على الإفلاس، فما كان منه إلا إنه اقتنى عدة أجهزة (فيديو جيم) ، التى تعمل بالعملات المعدنية وصار يؤجرها ـــ كمصدر مؤقت للربح ـــ حتى تنحسر الموجـــة فـــيغير نشاطه تبعاً للموضة السائدة ، وهكذا وجد أحمد نفسه (شـــحط)

يقف عملاقاً بين التلاميذ (المزوغين) من مدارسهم القريبة والمكتظة بهم الصالة ـــ برغم خواء الأجهزة من اللاعبين ـــ .

كان أحمد السيد بالرغم من نضجه مدمناً لألعاب الفيـــديو جـــيم خاصة مقاتل الشارع (street fighter) وكان من روادها الأوائل الذين (قفلوها) فى صالة ألعاب محطة الرمل التى أغلقت الآن ، كان من عشاقها حتى إنه شاهد فيلم (فان دام) المستوحى مـــن قصـــتها والمسمى بنفس الاسم خمس مرات فى سينما (أمير) ، بالرغم مـــن كون فان دام بطل الفيلم كان يؤدى دور الطيار الأمريكى الـــذى ليس له تأثير حقيقى فى اللعبة ، والذى لم يكن هناك مجنون (يلعب) به.

ولهذا وجد أحمد نفسه يشترى (كُويْن) ، ويبدأ اللعب ببطله المفضل (كين)، بطل اللعبة الأصلى ، وراح يقاتل فى الشوارع فى محاولة منه للوصول إلى (الزعيم) ، وبدأ الحضور يتحمس لإتقانـــه اللعـــب ، وتعالت عبارات التشجيع وتضافرت مشاعرهم معه كأنه (بطلهم فى معركة وطنية كبرى) ، وأثار لعبه حماس بعضهم لمنازلته فى (جـــيم زوجى) ، وهكذا راح يقهرهم جميعاً حتى استفز مشرف الصـــالة شخصياً ، وهو شاب حديث السن يبدو (ابن ١٨) و(أكل عيشه) هزيمة رواد الصالة.

كان فتى ظريفاً اسمه عليّ ، راح يمازح أحمد وهما يتباريان أمام تشجيع الجمهور ، ويتبادل السجائر معه ولكن أحمد لم يكن ابن الأمس، كان (يلبّسه) ضربات القوة الداخلية (أدوكن) بصورة متلاحقة خاصة وأن عليّاً كان يلعب (بالبنت الصينية) ، فتوحد أحمد مع (كين) ، وتخيل هذه البنت بسمة وراح يناولها (تجميعة الآوريوكن) بانتقام موتور .. لم يرحمها منه سوى دقة الواحدة ظهراً فى ساعة الحائط.

ترك أحمد الصالة ـــ مع وعد بالعودة فيما بعد ـــ ، وخرج مهرولاً ليحشر نفسه حشراً فى مشروع ما حتى وصل إلى (رشدى) ، فقطع الشوارع الواصلة للمصرف فى سرعة حتى بلغ بوابته الرئيسة فى الثانية إلا الربع ، فتوقف على الإفريز المقابل يلهث ويبتسم فى انتظار معشوقته.

□

" إن مصادفة طيف هفهاف لمشاعر نبيلة . قد لا ترقى لكونها حباً . مرة أخرى فى واقع مليء بالمرار لهو أمر يثير الشجن فى النفس ، ربما ليس حسرة وحنيناً لذات المشاعر أو لنفس القلب الذى وهبها وولى فيما مضى ، ولكنه غالباً ما يكون حنيناً لنسخة أطهر وأنقى من ذواتنا تركناها فى الماضى النقى لنمضى فى حاضرنا الملوث "

{١٢}

انتابت ليلى كثير من المشاعر المتناقضة لمرأى أحمد وهو يبتسم فى نشوة بلهاء تدلى لها فكه السفلى فى مشهد مضحك ، كأنه طفل يريد مفاجأة أمه بالـ (١٠/١٠) والنجمة الحمراء اللتين منحتهما إياه (الأبلة) فى (كراسة الواجب).

دهشة عارمة انتابتها ، ثقة مستترة فى سحرها ، إعجاب بمثابرته وسعيه خلفها ، فرحة لثقتها بقدومه من أجلها فقط ، خجل من أن يراه زملاؤها فيبدأون الغمز واللمز والتعليق ، وجيب فى قلبها لتعلقه بها لهذه الدرجة ، مشاعر غريبة عنها لا تقدر على توصيفها.

- أنت مجنون يا أحمد ، إيه اللى جابك هنا ؟

تقولها وهى تتلفت حولها وتسحبه من زراعه إلى شارع جانبى كأنه أخوها (السوابق) الذى تتنصل منه وقد خرج من السجن وأتى لابتزازها.

- ما صدقت لقيتك ومش هاسيبك تضيعى منى تانى أبداً.

يقولها فى تهدج ووله ، كأنه ممثل رديء فى مشهد عاطفى من مسرحية قصر ثقافة إقليمى.

- الله يخرب بيتك ، هاتفضحنى ... تعالى.

تسحبه من يده كأنه طفل تائه تبحث له عن أمه ، وتمضى بـــه فى شوارع عدة متقاطعة حتى بلغت به البحر ، فاستندت على ســـور الكورنيش أعلى الكبائن فى (ستانلى) ، وتنهدت ثم نظرت إليـــه فى لوم دون تعليق.

- باحبك يا ليلى وخلاص هاعمل إيه يعنى ، باحبـــك مـــن زمان قوى ، من اول يوم شفتك فيه وأنا باحبك ، وكنت باتقطع وأنا شايفك بتروحى من أيـــدى لواحـــد تـــانى ، باحبك ومستعد أعمل أى حاجة عشان احافظ عليكـــى .... وبس.
- مش معقول اللى أنت بتقوله ده ، أنت مراهق يا بنى ، إحنا صحيح اشتغلنا مع بعض فترة مش صغيرة بس عمرنا مـــا اتكلمنا فيها كلمتين على بعـــض ... وماشـــفتنيش غـــير دقيقتين إمبارح من يمكن ٣ سنين ، وجاى النهاردة تقول لى باحبك ....

- مافكرتش فى منظرى هيكون إيه قدام زمايلى لما يلاقـــوك واقف مستنينى كده ، ما فكرتش فى كلامك ده هيعمل إيه فيا وأنا ف الحالة دى.

- والنبى يا احمد سيبنى فى اللى أنا فيه ، أنا مش ناقصة .

تشيح بوجهها ناحية البحر ، وتتركه يتأملها مرتبكاً ، لا يعرف ماذا يقول بعد هذا الجنون ؟ ، دائماً ما كان لســـانه الزلـــق يضـــعه فى مواقف عسيرة يصعب عليه الخلاص منها ، وكثيراً ما كان يقـــول الكلمة ويندم بعدها أياماً وأحياناً سنوات ، ولكن ما باليد حيلـــة ، ما حدث قد حدث ولقد أراحه هذا الاعتراف كثيراً بعدما عـــاش سنوات حبيس صدره ، يجثم على أنفاسه ، ويمنعه من مـــنح قلبـــه لبسمة خالصاً.

صحيح هو لم يفكر فى أى شيء مما قالته ، كان فقط يريد رؤيتها ، يفتعل أى حديث ليستمتع بصوتها الدافئ ، يستنشق أنفاسها العطرة كأنها (برسفونيه) ربة الربيع عند الإغريق ـــ هل كـــان الإغريـــق يعرفونها لتلهمهم أوصاف آلهتهم ؟ ـــ لقد خطط للقاء مختلف معها يتقرب فيه منها أكثر ، يعرفها أكثر ، إنه حقاً لا يعرف عنـــها أى

شيء ، ولكن يبدو أنه يفقد عقله أمام فتنتها ، فلا يقدر على شيء سوى أن يفيض حباً كتلميذ الإعدادى حينما يرى جارته الحسناء فى (المريلة الكحلى).

- أنا آسف بس غصب عنى ، أنا كان نفسى أقولك باحبك من زمان قوى ، أنا مش محتاج لحاجة ف الدنيا قد ما أنا محتاج لك يا ليلى.

تنظر فى عينيه نظرة طويلة حائرة بين رغبتين تجاهد كى تقاومهما ، رغبتها العارمة فى صفعه على وجهه لإحيائه للأنثى التى دفنتها بداخلها وأراحتها من عذابات هذا الوهم المسمى إفكاً بالحب ، ورغبة أخرى فى إلقاء نفسها بين ذراعيه لذات السبب.

بعد لأى تمالكت نفسها ، وانتزعت من حنجرتها رجاءً فى صيغة الأمر لتقول :

- سيبنى دلوقتى يا أحمد ، سيبنى أرجوك.

وتركته لتعبر الشارع هرولة ، ثم تختفى فى سيارة أجرة تعود بها إلى مترلها ، بينما هو لا يزال واقفاً فى مكانه محملقا فيها بعينين

مذهولتين مسحورتين بهذه الحورية بـــاهرة الحســـن ـــ مريضـــة الاكتئاب ـــ .

لم يعرف بعدها كيف وصل إلى بيته ؟ ولا كيف وجد نفسه أمـــام أوزو المنهمك فى تثبيت ضلفة كومود فى طور التشطيب ، بينمـــا العرق يغمره برغم طقس أمشير العاصف شديد البرودة ، كأنـــه فى إعلان تلفزيونى عن كفاح العمال ، وراح يلح عليه أن يدخل معه قليلاً يحدثه فى موضوع مهم وعاجل لا يقبل التأجيل ، ولكن أوزو كان منهمكاً بالفعل ، فتركه أحمد على وعد منه أن يمر عليه مساءً، ودلف بعدها إلى غرفته وحيداً ولكن مشاعره المتزاحمـــة فى قلبـــه وأفكاره المتضاربة فى عقله لم يتركا له مجالاً للوحدة .

يجلس أحمد على الكنبة متدثراً بالغطاء أمامه بابور جـــاز المشـــتعل يتدفأ عليه، ينبعث من الكاسيت أغنية "كل الحاجات" لمحمد منير، الصادرة ضمن ألبوم "شيكولاته" عام ١٩٨٩ ، حتى قاطع الموسيقى طرقات إيقاعية على الباب يصاحبها صوت أوزو.
نهض متثاقلاً ليفتح الباب ، فدلف منه أوزو مرتعشاً ، وألقى بنفسه على الكنبة بجوار صديقه وهو يفرك كفيه طلباً للدفء .

أوزو متسائلاً : عندك شاى؟

نهض أحمد مبتسماً وهو يناوله علبة السجائر ويبدأ فى إعداد الشاى، بينما أوزو يشعل سيجارة من البابور.

أوزو : لأوضة عندك دفا ، أنا عندى صواريخ هوا فوق.

أحمد : ربنا يكون ف عونك السطح صعب قوى ف الشتا.

أوزو يصغى قليلاً ، يمتعض وجهه:

- إيه يا بنى اللى بتسمعه ده ؟

وضع أحمد البراد على البابور وجلس بجوار صديقه:

- ده محمد منير ياعم الحاج

أوزو مستنكراً : أنا مش عارف أنت بتسمعه إزاى

أحمد فى حماسة كأنه يدافع عن مذهب دينى :

- ده أحسن واحد بيغنى ف مصر.

أوزو فى سخرية :

- أنت هتكدب ، كل شهر مجلة الشباب بتعمل استفتاء أحسن المطربين والشرايط، وكل مرة محمد منير بتاعك ده يطلع الأخير وللا قبل الأخير بالعافية.

أحمد يصب الشاى ويناوله لصديقه (مبتسماً) :

– عشان فنان سابق زمنه ، محدش هيقدره غير لما يموت زى كـــل العظماء

أوزو فى تأمل : فعلاً معاك حق ، البلد دى مدحش بيتكرم فيها غير لما يموت.

أوزو : عارف وأنا في اليونان ، كنت باشغل لهم في المصنع شرايط أم كلثوم ماكانوش فاهمين منها حاجة ، بس كانت بتعجبهم قوى.

أحمد : أنت صحيح ليه روحت اليونان بالذات؟

أوزو : بعد ما طلعت م الجيش مالقيتش صنايعى في مصر.

أحمد : أه أنت كنت في أيام الحرب صح؟

أوزو باستنكار : أيام الحرب! يابنى أنا واللى زيى هم الحـــرب ذات نفسها ، أنت ما شوفتش نجمة سينا اللى عنـــدى فـــوق دى؟ ده الريس السادات الله يرحمه سلم عليا بنفسه.

أحمد : أيوة يا عم شفتها ، والله مصدقك.

أوزو : لا أصل أنت مش فاهم ، أنا كنت سلاح مهندسين؟ يعنى أول ناس عدت القناة، إحنا اللى وصلنا الكبارى عشـــان الجـــيش يعدى ، مش بس كده، السرية بتاعتى كانت بتكسح الألغام اللـــى زرعوها اليهود ورا خط بارليف عشان دبابتنا تتقـــدم فى ســـينا ،

كانت النار حوالينا من كل حتة ، م الأرض و السما م الشرق والغرب ، موضوع كبير يعنى.

أحمد : ده أنت كنت بطل بقى.

أوزو (يسرح فى الذكرى) : وأى بطل يا بنى ، الصراحة السرية كلها ، لأ الجيش كله كانوا أبطال.

أحمد : ومش بتشوف حد من زمايلك لحد دلوقتى؟

أوزو : كل فين وفين ، الدنيا توهتنا بقى.

(يضحك بسخرية) ولا أحنا أصلا توهنا أول ما خرجنا م الجيش.

أحمد : إزاى يعنى ؟

أوزو (بسخرية مريرة): طلعنا لقينا البلد مافيهاش صنايعى واحد ، مفضلش فيها غير بياعين البلوبيف والسفن آب والقمصان المشجرة.

أحمد : وبعدين عملتوا إيه لما لقيتوا كده ؟

أوزو : واحد زميلى قدم طلب تعيين في الحكومة قاموا شغلوه فراش ف مدرسة ، وواحد تانى راح اشتغل عتال في المينا، واللى ماستحملش ، سافر السعودية ولسه مارجعش لحد دلوقتى.

أنا بقى ما حبتش جو الخليج ده كنت عايز أروح أوربا على طول جيت أروح إيطاليا معرفتش ، جت ف سكتى اليونان وقعدت فيها لحد ما أبويا الله يرحمه تعب.

أحمد : الله يرحمه .

أوزو : كان يونس أخويا اتجوز واخواتى البنات على وش جواز، يا دوب أبويا مكملش سنة عيان وراح للى خلقه ، لقيت نفسى شايل حملهم لحد ما شورتهم التلاتة ووصّلتهم لبيت رجالتهم. عشان يرجعوا بعد كده ينكروا خيرى.

أحمد : معلش يا أوزو أنت عملت اللى عليك.

أوزو بمرح مفاجئ كأنه يحاول تجاوز أحزانه يميل ليسأله :

– المهم كنت هتولد ليه عشان تكلمنى العصرية ؟

– أنا باحب يا أوزو ، باحب قوى وبجد وهاموت عليها.

كان أوزو يعض على شفته السفلى ، وينتقى فى ذهنه أشد الألفاظ بذاءة كى ينعت بها صديقه عديم المسئولية الذى يريده أن يترك (أكل عيشه) من أجل هذا الكلام الفارغ ، ولكن أحمد لم يمهله واستأنف :

– مش الزفتة خطيبتى ، دى بنت بحبها من زمان قوى وشوفتها النهاردة وقولتلها باحبك وبقالى سنين بحلم بيها لحد ما قابلتها.

كانت دهشة أوزو بادية على ملامحه وهو يسمع هذا الكـــلام لأول مرة ، منذ عامين وأكثر وأحمد لا حديث له إلا عن بسمة ـــ الـــتى ظلمها أبوها حينما اختار لها هذا الاسم ـــ ، بسمة التى يحبها أحمد لدرجة الوله أياماً ويلعنها بمنتهى المقت أياماً كعادة أى زوجـــين أو خطيبين فى مرحلة ما بعد (الورد والدباديب) ، أول مرة يعرف أن هناك أخرى، بل والأدهى أنها موجودة ومؤثرة وقد تكـــون (قـــدم يمين) هذه المرة.

- أنا مش فاهم حاجة ما تحكيلى المشوار من أوله عشان أقدر أفيدك.

فى حوار مستفيض مشبع بالتفاصيل المهمة والهامشية حكى أحمـــد لأوزو كل شيء ـــ بالطبع ماعدا علاقته الجنسية ببسمة والتى يظنها أوزو لا تتعدى القبلات والأحضان المعتادة ـــ وبعدها سأله أوزو :

- يعنى أنت بتحبها للدرجة دى؟
- يااااااه وأكتر مما تتخيل ، دى حلم حياتى يا أوزو.
- طب وهى بتحبك؟
- ماعرفش ، بس كل اللى أعرفه أنى بحبها قوى يـــا أوزو ، ونفسى تكون من نصيبى.

- مادام ما معاكش فلوس يبقى متفكرش من أصله.
- وهو الحب كمان محتاج فلوس؟ كل حاجة بالفلوس ، الفلوس مش هى كل حاجة.

أوزو (ينظر له باحتقار) : إنت اتهبلت ولا إيه؟ الفلوس طبعا كل حاجة في الدنيا.

أحمد معترضاً : لا طبعا ، الفلوس ما بتشتريش الصحة ، ولا الحب ولا راحة البال.

أوزو ينهض (بانفعال) : فوق يا أحمد م الهطل ده ، أديك قاعد تعيط على حتة بت وإحنا بنام باليومين من غير عشا ، الفلوس هى كل حاجة ف الدنيا دى من يوم ما ربنا خلقها، والهبل اللى زيك بس هما اللى بيتكملوا بفلسفة فارغة .

أحمد ينظر له غير مكترثٍ مما يزيده حنقا ، يجلس بجواره ، يضع يده على كتفه يتحدث بهدوء كأنه يلقنه درساً .

أوزو : شوف يا أحمد يا حبيبى .. الفلوس هى اللى تقدر تشترى بيها البيت اللى تتجوز فيه البنت اللى بتحبها ، تشترى الأكل اللى هتطبخهولك بإيديها ، تشترى راحة البال إللي تطمن بيها لبكرة حتى الصحة .. يمكن الفلوس ما تعرفش تشتريها، بس اللى عنده سرطان ومعاه فلوس .. يقدر يشترى بيها مسكنات للوجع ،

أوضة نظيفة ف مستشفى ، يشترى بيها الدكاترة والممرضة اللـــى تخدمه ، يشترى كل حاجة تخفف وجعه وتخليه يســـتحمل آخـــر ساعات العمر ويموت بكرامة .

تدمع عيناه ويختنق صوته فيتنحنح ثم يستأنف :

ـــ لكن أهالينا بقى ، ماحيلتهمش غير الصـــوات ف عنـــبر أورام مستشفى حكومة كأنه معتقل وفي الآخر يموتوا من غير ما حد يحس بيهم ويتدفنوا ف ترب الصدقة من غير حتى ما تتكتب أساميهم ع الرخامة بتاعتها.

يصمت هنيهة ، وأحمد يتأمله غير مصدق لما سمعه تواً.

أوزو (ينهض) : أنا ماشى هاروح أنام عشان أفتح من بكرة بدرى، يمكن ربنا يرزقنا بحق العشا والسجاير

أحمد معقباً فى أمل واه :

– يمكن بتضيق علينا قوى عشان تجيب آخرهـــا ، وبعـــدين تفرج من وسع ع الآخر.

أوزو : يا رب تفرج قوى ونعرف نطلع م البلد اللى مكلبشة فينـــا زى القراضة دى ، سلام.

يختفى أوزو فى ظلمة السلم صاعداً لغرفته ويترك أحمد لذاته الخرساء يسألها ولا تجيب.

هل فعلاً تحبه ليلى ؟ ، فرحتها لرؤيته تؤكد ذلك ولكن هذا لـــيس كافياً ، عله موهوم.

وإذا أحبته فهل ستقبل به زوجاً؟ ، وضعه المادى الحرج ينفى هذا.

فإن قبلت ، وهذا هو الأهم ، ماذا سيفعل ببسمة ؟ ، يهجرها بعد كل هذا ؟ ، يتركها دون أن (يسترها) ، كيف سيحتمل وزرهـــا على رأسه يوم القيامة ؟ ، إن كانت هى لا تستحقه كزوج فهـــى أيضاً لا تستحق فضيحة كهذه ، وهو أيضاً لا يحتمل أن يصير نذلاً خسيساً لهذه الدرجة من الدونية.

إذن يبقى على بسمة وينسى ليلى ، ليلى التى خلقت لتصـــنع مـــن زوجها أسعد الرجال وهو يطمع فى أن يكون هذا الزوج.

تتزاحم الأسئلة فى رأسه ولا يجد لها جواباً ، ويظل يتلوى فى فراشه حتى يهده الإعياء والسهاد فيغيب فى ثبات طويل بلا أحلام تقريباً.

" إن الرجل لا يستشعر بؤس حياته وكآبتها حتى إذا ما صادف حياة أجمل منها ،

إلا حينما يكون هناك من يوسوس له أنه يستحق الأفضل وأنه يملك تحقيق ذلك "

{١٣}

كان رفض أحمد السيد لتوسطه فى بيع محتويات مقبرة الجبل قاطعاً ، ومما زاده إصراراً وجود بلقيس ومحاولاتها المستمرة لاستمالته ، بلقيس المرأة الواثقة الآمرة التى ينصاع لها رجال أشداء كأنها (صاحبة كرامات) ويصيرون تحت فتنتها جنوداً مجندة فى إمرة قائدهم.

بلقيس التى تذكره بدليلة قاهرة الشاطر حسن رأس الغول ، ومن بعده ابنه على الزيبق الذى لم يقدر عليه صلاح الكلبى بكامل سلطانه.

بلقيس التى اتخذته نداً فى معركة النوعين على سيادة الجنس البشرى .

كان رأى عاطف أيضاً قاطعاً ، فهو ــ عاطف ــ ليس ابن البارحة بالفعل ، بالرغم من انبهاره ببلقيس وسقوطه فى براثنها ، إلا إنه كان يحاول أن ينال منها أى شيء بشرط ألا يدفع مقابلاً يؤذيه ، ولهذا فحينما اتصلت به بلقيس وطلبت منه تحديد لقاء مع أحمد لم يتردد ولكنه حذر أحمد كثيراً جداً منها ومن خطرها الداهم

على أى رجل يقترب منها ، كأنها نافخ الكير الذى إما أن يؤذيك ريحه أو يلفحك لهيبه لا يأتى من ورائها خيراً إلا لذاتها ، ولهذا فقد حذر أحمد كثيراً من التورط معها فى تلك الصفقة المشبوهة ، خاصة وهى تريده أن يبيع من أجلها (تمة تودى ورا الشمس) ، فلا أحد يعبث مع مباحث الأثار فى مقتنيات فرعونية اللـــهم إلا (العضـــمة التقيلة) الذى لا تطوله يد القانون.

إن مباحث الآثار قد تتهاون مع أى أثر من أية حقبة تاريخية أخرى ولكنها لا تعرف الهزل عندما يتعلق الموضوع بالفراعنة ، ولهذا ولأن بلقيس وصبوراً ليسا أهلاً لثقة أحد حتى ولو كان أبله ، فكان لا بد أن يضغط عاطف على أحمد حتى ينسى الموضوع ، وهو ما صادف هواه الشخصى فعلياً فتـــهرب منـــهما بـــاقى فتـــرة وجودهمـــا بالإسكندرية، ولكن أوزو ...

إبليس الذى ظل يجمل من الشجرة المحرمة حتى أكل منها آدم ، ظل يعد أحمد بالمجد والشهرة والثراء كأنه فاوست.

كان أوزو يعرف كل شيء ، وخاصة أن بلقيس اتصلت بأحمد عند (أم خليل) مالكة الهاتف الوحيد بالشارع ، ولم يكن أحمد موجوداً فاستقبل أوزو المكالمة كعادته فى المواقف المشابهة.

كان أوزو لا يحلم بالثراء ، فقط كان يحلم بثمن تـــذكرة الطـــائرة والتأشيرة التى تنجيه من هذا الفقر ، وتعيده لأوروبا ـــ الجنة مـــن وجهة نظره ـــ ، لذا راح يلح على أحمد فى قبـــول العـــرض بـــل وتحمس لمشاركته إياه وحاول تذليل جميع العقبات أمامه.

كان أحمد كلما تناسى الموضوع ذكره به أوزو ، راح يعـــدد لـــه مظاهر الشقاء التى يحياها ، يعدد له مظاهر النعم التى سينالها ، كان يضغط عليه وهو يقاوم ، حتى ضغط أوزو على نقطة ضعفة الـــتى تقهره .. ليلى .
ليلى التى أفسدت عليه قناعته بحلاوة الماضى الكاذبة ، وصبره علـــى آلام الحاضر المهلكة ، وأمنياته للمستقبل غير المنطقية.

كان أحمد قد ثور للمرة الثانية بالرغم من خصم ـــ نصف راتبـــه وإنذاره بالرفت بسبب غيابه المتكرر ـــ وذهب فى ذات صباح باكر لكى يجلس على مقهى فى ذات الشارع الواقع فيه االمصرف الـــذى تعمل به ليلى ، واستقر على مقعد يرى الشارع بوضوح وظل ينتظر ظهورها.

مع اقتراب الثامنة وجدها عند أول الشارع تتألق فى طريقها لمقر عملها ، تمشى فى حزم وصرامة لم يمنعاها من نثر البهجة على كل الموجودات فى طريقها ، كانت تشع نوراً وعطراُ ورونقاً ، فما أن رآها حتى انطلق ليقطع عليها الطريق ، ودون كلمة واحدة كان يقتادها هو هذه المرة إلى ذات الشارع الجانبى ليبثها حبه ولوعته فى عبارات طويلة متلاحقة بأنفاس متهدجة وقلب صادق الإحساس يتغزل فيها كأجمل ما سمعه هو شخصياً ـــ مع كثرة قراءته لشعر الغزل ـــ .

كانت تتلقى منه كلمات لم تتلقها عبلة من عنترة الذى خلد حبها فى أشعاره ، كان أحمد السيد يبدو وكأنه قنبلة هيدروجينية محملة بإشعاعات الحب المكبوت طيلة سنوات الطفولة والمراهقة والشباب البكر المعذب على يد بسمة ، ثم انفجرت فجأة فى وجه أول غافل عبث بها.

وكانت ضحيته هى ليلى.

المسكينة التى ظلت تحيا أعواماً فى عطاء مستمر لكل من حولها دون أن تحصل على شيء ، ليلى المستترفة شعورياً ومادياً ومعنوياً من قبل كل المحيطين بها دون أن تسألهم عليه أجراً ، ليلى التى كانت تحلم برجل يحبها ويبذل فى سبيلها قليلاً ، فقط قليلاً من الجهد الجاد.

ليلى التى لم تحتمل عذابات أحمد الصادقة فى جفائها إياه.

لم تعرف هى ولا حتى هو كيف تحركا معاً متشابكى الأيدى مبتعدين عن كل شئ حولهما ؟ ، لا تعرف كيف وجدت نفسها تجلس فى مواجهته على مائدة إحدى مقاهى الكورنيش ؟ ، تصدم لوجود أخرى فى حياته هى أحق به منها ، تستمع لشكواه من (تباريح الهوى ولوعة الفراق) ، تتلقى توسلاته لها أن تبقى معه بلسان عاجز عن النطق ، يطلق فى وجهها عبارات الغزل التلقائية النابعة من قلبه الصادق فتخترق قلبها المحطم المتعطش للحب ليرويه.

طالت جلستهما النهار بطوله فى أحاديث تتخللها دمعات تنسال من كليهما بالتبادل ، شكاوى من حب سابق ومواساة يتبادلانها فيما بينهم ، لمسات خجولة منه لأناملهما البلورية الدقيقة.
كان أحمد وليلى أكثر شخصين متوافقين فى هذا العالم ، أكثر زوجين يبشران بحياة سعيدة هانئة ، ربما لهذا استحال الجمع بينهما.
كانت ليلى نبيلة بصدق ، لا تقبل أن تبنى سعادتها على أنقاض تعاسة بسمة ، حتى ولو كانت هى تستحق ذلك ، خاصة وأنها

ذات خبرة سابقة مع ذات الموقف وما قاسته منه تنوء بـــأخرى أن تقاسيه.

كانت تشفق على غريمتها التى لم تختر أن تكون أقل منها جمـــالاً ، وبهاءً ، وذكاءً ، وروعة.

التى لم تملك إلا أن تكون أشد منها حدة ، وعصـــبية ، وســـلاطة لسان ، وضيق أفق.

كان قرار ليلى حاسماً ـــ كحكم بائن غير قابل للطعـــن ـــ وهمـــا يجلسان متلاصقين على سور الكورنيش يرمقان الشمس الغاربـــة ، وهى تغرق فى البحر ببطء ، فتنتشر دماؤها على سطح المياه الثائرة وكأنها المعادل الطبيعى لحبهما المذبوح بسكين الأمر الواقع.

فقط طلبت أن تفعل شيئاً ليس من حقها لمرة وحيـــدة فى عمرهـــا كله، أراحت رأسها الدقيق على كتف أحمد ، وتركـــت شـــعرها فاحم السواد ، عطر الرائحة يدغدغ كيانه ، ويترع من قلبه آخـــر آثار بسمة ، وبالمقابل طلب منها هو الآخر شيئاً دون أن ينطـــق ـــ فقد كانت عيناه تتحدثان ببلاغة شعراء العرب الأقدمين ـــ مـــال عليها كى يلثم جبينها الوضاء ويرشف قطـــرات عـــرق الخجـــل المتزاحمة عليه.

كانت ليلى تملك حواسه الخمس وتشبعهم.

حسنها الأسطورى يبهر بصره.

صوتها ـــ رنم الملائكة ـــ يطرب مسامعه.

عطرها ـــ فردوسى الرائحة ـــ يثير خياشيمه لأبعد مدى.

ملمسها الحريرى يبعث رجفة النشوة فى أعصابه.

طعمها الذى لم يكد يتذوقه يشبع قلبه النهم للحب.

كانت ليلى نموذجاً لفتاة أحلامه التى لم يعترف لنفسه بوجودها ، كانت تستحق أن يحيا عمره لأجلها وما كان يطمع حتى فى أن تبادله المشاعر ، فقط كان يريد منها أن تسمح له أن يحبها.

ولكن كما قالت له فهو ملك لأخرى أحق منها بوجوده بجوارها ، أما هى فملك لوحدتها التى ألفتها ، وليبق ما بينهما ذكرى جميلة يسترجعها أحدهما فى لحظات الشدة ليستطيع تحمل حياته القاسية دون وجود الآخر وكفى.

ورحلت ..

تركته للأبد مع رجائها ألا يحاول أن يراها بعد اليوم حتى تدوم ذكرى هذا اللقاء حتى آخر العمر.

رحلت (ابنة النهار) ورحلت معها شمسها لتتركه وحيداً وسط سيادة الظلمة على السماء والأرض وعلى روحه البائسة.

" إن المرء ليحتمل الفقر وغلبة الدين وقهر الرجال طالما انقطعت به سبل التغيير ، ولكن إذا ما لاحت له ولو ربع فرصة فى الأفق لسعى خلفها بكل ما أوتى من قوة حتى ولو نازعته عليها كل كواسر البرية "

{١٤}

يقف أوزو على السلم الخشبى بـــ(فانلته) الداخلية التى تبرز تكوينه العضلى دقيق التشريح ليعيد توجيه هوائى التليفزيون أنيس لياليهم ، خاصة تلك الأمسية الهادئة المنعشة بفعل نسائم ليل الصيف.

كان أحمد يقف فى مواجهة الموقد الصغير يمسك بكنكة القهوة التى يعدها ، بينما عقله شارد فى مكان وزمان آخرين ، تائه بين جمـــال الحياة فى وجود ليلى وتعاسة أيامه بدونها ، حتى فارت القهوة وفسد طعمها فصب لأوزو ولنفسه باقى السائل المحترق فى كوبين صغيرين ، وأشعل سيجارة من علبته شبه الخاوية ، وراح يتأمل تتابع الصور على الشاشة دون أن يعى شيئاً كأنه يتابع فيلما تركيا غير مترجم ، حتى فرغ أوزو مما يفعله وجلس بجواره كى يتابع (مايكل كيتـــون) وهو يرتدى زى الوطواط ويجاهد لإنقاذ (مدينة جوثام) من البطريق (دانى ديفيدو).

– يع إيه القرف ده يا بنى آدم.

يقولها فى اشمئزاز بعدما ذاق قهوته رديئة الصنع ، المغليـــة إلى حـــد الاحتراق.

– بحبها قوى يا أوزو ، مش عارف أعيش من غيرها.

كان أوزو قد مل ذات الحديث طيلة الشهرين الماضيين ، لا ينفك أحمد أن يصارحه بحب ليلى بمناسبة ودون مناسبة حتى صار سمج المعشر ، مملاً كطفل مدلل لا يتعب من (الزن) كى يشترى له أبوه لعبة (سلاحف النينجا) باهظة الثمن.

يتنهد أوزو ويقول فى ضيق واضح :

- يا تقعد ساكت يا أحمد ، يا تنزل تقعد ف بيتك عشان ما نزعلش من بعض ، أنا زهقت منك ومن سيرة البت دى.
- بحبها يا أوزو ، مش قادر أستغنى عنها ، مش عارف أشوف غيرها ، ما تستحملنى شوية يا أخى.
- ما أنا قلت لك الحل بدل المرة ألف ، اللى أعرفه إن الحب آخرته جواز تروح زى الشاطر وتطلبها من أبوها وتسيبك من أم ضب اللى معاك دى مادامت منكدة عليك عيشتك.
- إزاى بس أروح أطلبها من أبوها ، يا عم هى فين وأنا فين ، دى بنت ناس قوى وأهلها مرتاحين وأنا بقيت خالى شغل مش لاقي حق السيجارة.

كان أحمد قد تم فصله من عمله بسبب غيابه المتكرر بدون عذر ، وبسبب حضوره شارد الذهن (اللى زى عدمه) فما كان من مدير

المدرسة إلا أن وجد فرصته القانونية للخـــلاص منـــه ، فألقـــاه فى الشارع يتسول عملاً يغنيه عن سؤال الناس.
وربما كان هذا أفضل فما كان أحمد يحتمل رؤية بسمة كـــل يـــوم بعدما صارت بالنسبة له كحجرة الفئران التى سيحبسونه فيها بعـــد حين لأنه أخطأ ووقع بها.

صحيح أنه لم ير ليلى منذ شهرين وأكثر إلا أنها مازالت تحيا بداخله ، لا يملك منها فكاكاً ، وكانت بسمة تزداد بغضاً كلما زاد جفاؤه ، فكان هذا يزيده مقتاً ، وهكذا حتى صارت بالنسبة له (مالِكـــاً) الذى ينتظره كى يلقي به فى الدرك الأسفل من النار.

يقول أوزو :
– شوف يا أحمد الفرصة جت لحد عندك وأنت رفستها ، العمليـــة بتاعة الصعايدة دى كانت ممكن تخليك باشا تدخل أى بيت وتحط رجل على رجل وتطلب ست الحسن والجمال ، بس أنت فقـــرى عاجبك حالك كده وأنت عمال تعدد على بت ، وإحنـــا بننـــام باليومين من غير عشا، يا راجل بلاش هبل وفوق بقى.

كان أحمد فعلاً يعتقد أن فقره هو المسؤول الأول عن تعاسته ، ربما لو امتلك المال لاستطاع أن يتخلص من بسمة ، كان سيعطيها ما يكفي أن يجعلها تستغنى عنه وربما تستطيع أن تجد طبيباً يجرى لها جراحة ترقيع و(يسترها) دون اضطرار أحمد للزواج منها ، ربما لو امتلك مالاً لاستطاع أن يتزوج من ليلى بصورة تليق بها ، لاستطاع أن يسعدها و يصنع لها حياة الرغد التى تستحقها ، ربما يستطيع أن يؤسس مشروعاً تجارياً يستغل فيه خبراته ، ويكسب من ورائه الملايين.

ولكن السبيل لهذا المال محفوفة بمخاطر مباحث الآثار وطمع صبور وكيد بلقيس الذى لا يقدر عليه رجل..

أحمد : يعنى لو كنت طاوعتك وخدنا الفلوس كنت هتعمل بيهم ايه؟

أوزو حالماً : ياه يا بنى ، هروح أطلع الفيزا مرتاح ، وأهج م البلد دى.

- يعنى ما تفكرش تعمل مشروع هنا
- هنا إيه يا بنى ، البلد دى مش بتاعت شغل.
- ليه يعنى ما الناس عايشة ومرتاحة.

- الحرامية والصيع بس هما اللي معاهم فلوس، أنا شفت الموت ١٠٠ مرة فى الحرب عشان أطلع م الجيش ألاقى بتوع الفراخ الفاسدة بقوا مليونيرات، البلد دى عايزة اللى يهبش ويجرى مش اللى عايز يشتغل.
- وأنت يعنى لو سافرت برة هتشتغل إيه؟
- أشتغل بصنعتى يا بنى ، ده أنا كنت باكسب دهب ، لو كنت قعدت سنتين كمان كنت فتحت ورشة بحق ربنا تخليني باشا.
- مش عارف بس أنا لسه عندى أمل في البلد دى.
- أوزو (يسخر) : خلى أمل تنفعك بقى ، ما انت بقالك سنين مكفى ع الدركسيون عمرك ما حلمت تشترى لنفسك عجلة.
- إنت تعرف إن أنا بَعت جواب لواحد صاحبى في اليونان ماشاء الله ربنا فتح عليه وبقى عنده مطعم سمك كبير قوى ف أتينا ، وكلمته ع المصلحة وهو عنده اللى يشترى.

أحمد فى ذعر بالغ :

- انت مجنون؟!! إزاى تعمل كده ، إفرض الجواب ده وقع في إيد حد ، نروح في شربة مية ، ده احنا حتى ما نعرفش

إيه اللى ف المقبرة، وبعدين إحنا مالناش دعوة بيهـــا همـــا زمانهم صرفوا حالهم بعيد عننا.

يضحك أوزو فى سخرية ويستطرد :

- أنا لسه مكلم أم هالة من يومين وقالت إنها مستنيانا وكله تمام ، وإحنا مش شبهة عشان حد يفتش ف جواباتنـــا، ثم إن جابرييل صاحبى ده راجل جدع وما يبيعش صـــحابه وأنا ياما خدمته هناك وهو مستعد يشيل اللى نلاقيه.

كان الذهول يعترى أحمد ، خاصة حين وصف أوزو اللعينة بلقيس بأم هالة ، مما يعطيه إيحاء بالود ، والألفة التى تكونت بينهما مما يدل على علاقة متصلة بينهما ، بينما هو غافل فى رثائه لنفسه ولعناتـــه لبسمة.

- أنت عايز تورطنا معاهم باعافية ، أنا خايف يـــا أخـــى م الشغلانة دى.
- يا أحمد فوق بقى ، دى آخر فرصة لينا عشان نعدى الفقر ونبقى بنى آدمين ، البيت هيقع على دماغنا ومالناش حـــد نتكل عليه ، أنت عايز تتجوز البنت اللى بتحبها ، وأنـــا عايز أهج م البلد دى وبلقيس متعلقة بيك ومستنياك بفارغ

الصبر ، فاضل ايه تانى ، يا عم هو أحنا عندنا ايه نخسره ، خليها بقى يا طابت يا اتنين عور.

- بس يا عم دى شغلانة وقعتها والقبر.
- وماله ، على قد المخاطرة على قد المكسب ولا إيه يا عم التاجر يا بتاع الصفقات.

كان أوزو يرى أن هذه المقبرة تحتوى على كنوز على بابا التى ستجعلهم جميعاً مليونيرات يشترون الأحلام بنقودهم ، ويحصلون على السعادة بشيك بنكى من حساباتهم الضخمة.

صحيح أنهم يقولون إن المال لا يشترى السعادة ، ولكن هذا فى أفلام ما قبل ثورة يوليو التى كانت تصدر للمجتمع الكادح أفكار السراية التى تقمع تطلعاتهم لمنازعة سادتهم أرباب الباب العالى فى حياة النعيم ، أما عند أى شخص طبيعى فى الحياة الواقعية فإن المال هو بالفعل مفتاح السعادة ، حتى لو كان مريضاً بالسرطان فإنه سيشترى بنقوده ما يجعل نهايته آدمية محتملة الألم ، كما قالها أوزو من قبل .

ولأن المال قابل لتحقيق الجنة على الأرض فقد شددت الأديان السماوية على مصدر هذا المال ، وقننت شرعية الحصول عليه وجعلت فيه نصيباً للمحتاجين.

كان أحمد يدرك أن (أوزو) يتحدث بالحق ، خاصة وأنهما أشد الناس احتياجاً لهذا المال ، وكانت صورة ليلى وهى مسبلة الجفنين ورأسها مستقر على كتفه لا تفارق مخيلته ، كان يتمنى أن يستأنف علاقته بها ، يتمنى أن يرشف من شهد شفتيها حتى يرتوى ولن يرتوى ، يتمنى أن يضاجعها مئات المرات فى الحقيقة كما فعلها فى أحلامه ، يتمنى أن يعود منهكاً من عمله مساءً ليجد ابتسامتها المشرقة فى انتظاره لتنسيه متاعبه.

ذلك الجدار الصخرى الذى يسد مدخل المقبرة كان يبدو كأنه يسد الطريق لأحلامه ، لجنته المرجوة على الأرض ، والأهم من ذلك سبيل الخلاص من بسمة.
وكان أوزو يبدو كعملاقاً أسطورياً مستعداً أن ينهش لحم أى شخص يمنعه من بلوغ مأربه ، وهذا يطمئنه نوعاً خاصة إنه لا يقدر على مجابهة بلقيس بكل جيوشها وحده.

" إن الذى عاش عمره دون أية مبادرة منه لاتخاذ قرار ما بمفرده ، حينما يتحرك أخيراً لتنفيذ قرار واحد نابع من ذاته ، غالباً ما تؤدى فعلته تلك إلى كارثة تدمر كل من حوله .. وهو على رأسهم "

{١٥}

ترتج السيارة السوداء ذات الدفع الرباعى ، بفعل سوء حالة الطريق غير الممهدة ، والتي لم تستطع متانتها ورفاهيتها مقاومتها فصارت أقرب لـ (مراجيح أبي العباس) ، بينما أحمد السيد يجاور أوزو فى مقعدها الخلفى الوثير ويصطدم به مع كل مطب لتنطلق لعنات بلقيس لقيادة صبور المستهترة وهى تتقافز بجاوره على المقعد الأمامى للسيارة خلال رحيلهم جميعاً إلى المجهول فى رحلة طويلة ، طويلة كما يجب أن تكون نموذجاً لرحلات صيد الجوائز واختراق الوديان وشعاب الجبال بحثاً عن الثراء .

لم يصمد أحمد كثيراً أمام مجادلات أوزو المنطقية ، وتنكيد بسمة الجهنمى ، وفتنة ليلى المثالية ، وكيد بلقيس إبليسى التخطيط .
لم يقاوم كثيراً وهو يُحشر حشراً فى سيارة صبور الآتى من أعماق الجبل كى يحمله إلى السعير بمصاحبة الشيطانة اللميس ناهدة الصدر بلقيس .

وهكذا وجد نفسه فى رحلة قيادة صحراوية مهلكة بمصاحبة صديقه الأثير أوزو وعدوه اللدود بلقيس ، بينما ذلك (الدلدول) صـــبور يجلس خلف عجلة القيادة ، وينطلق بهم نحو غيهب الظلم .

يرتب أوزو أغراضه فى حجرة الضيوف الواقعة بجـــوار المنـــدرة فى الدور الأرضى من بيت الجايدة المسلح ، البيت الباقى بعد السيول مع قلائل من أقرانه ، ويقول لأحمد دون أن يلتفت إليـــه ، وهـــو منهمك فيما يفعله :

- فوق يا أحمد م التوهان اللى انت فيه ده ، الناس دى ديابة هياكلونا أول ما نغفلوا عنهم ، ما تفتكرش إنهم جايينا هنا عشان سواد عيوننا ، لولا حوجتهم لينا كـــانوا ضـــربونا بالنار من بدرى .

كان أحمد صامتاً طوال الطريق ، لم يـــتكلم إلا للضـــرورة المـــثيرة للأعصاب ، كان شارداً أغلب الوقت ، يبدو هشاً قابلاً للتحطـــيم بنبوت أى واحد من أولئك العمالقة المحيطين بهم منذ وصـــولهم إلى النجع ، وكان أوزو يخشى أن يشجعهم مظهر أحمد المتخاذل بالغدر بهما .

لم يكثر أحمد فى القول ، فقط قال فى اقتضاب :

- ربنا يستر .

فنظر إليه أوزو نظرة جانبية لائمة ، وترك ما بيده ليواجه صديقه ، ونظر ملياً فى عينيه ، ثم قال هامساً :

- أسمع يا أحمد إحنا مش فى رحلة ، لو البقر دول حسوا فينا الخوف ولا المماطلة ولا شموا فينا ريحة الخيبة ولقونا مالناش فى الليلة هتطير رقابينا بكش ف أونطة ومالناش عندهم دية ، إحنا أغراب ف قلب بلدهم ووسط ناسهم ، إمسك نفسك وما تودينا ش ف داهية .
- الغدا جاهز يا أفندية .

أتتهم هذه الجملة المقاطعة من خارج الدار ، فنهضا مسرعين إلى المندرة كى يصطفا مع صبور ، وبعض الرجال على (طبليتين) عامرتين بطعام من الذبائح يكفى النجع بأكمله .

كان ذلك الجدار الصخرى الحاجب للمقبرة يجثم بكامل ثقله على صدورهم أجمعين ، يحجب عنهم التنفس والنطق والأحلام .

لم تقهره المعاول والمطارق وعضلات الرجلين ، وبدا الحل الأوحد للخلاص منه هو التفجير .

لم يكذب صبور خبراً فأحضر من الديناميت ما يكفى لنسف معبد فيلة ، ولكنّ (دياب) منعه قبل أن يتهور . كان دياب ابـــن أختـــه نعمة هو الأقرب إلى صبور سناً ، وهو صديق صباه ، ورفيق نزواته ، ومالك مفاتيح العالم السفلى للبحر الأحمر بأكمله ، وهو الوحيد الذى يأتمنه صبور على سر كهذا .

كان رأى دياب قاطعاً فى عدم استعمال الديناميت ، فقد كانـــت المقبرة ترقد فى جب كهف أجوف صار الآن جزءاً من دار صـــبور الجديدة ، وكان خطر التفجير يهدد بتهاوى المقبرة ، بـــل وانهيـــار الكهف بأكمله ، ليدفن أحلامهم تحت جلاميد الصخور وأطنـــان الرمال ، كانت حسبة القوة الـــتفجيرة ، واختيـــار أمـــاكن زرع الديناميت تتطلب خبيراً بالمتفجرات ، ربما أحـــد الأشـــقياء مـــن المطاريد ، ولكن هذا أخطر عليهم ألف مرة من خطر الديناميت .

كان مأزقاً لا فكاك منه ، حيث إن خبراء المفرقعات لا يستأجرون من (معلمهم) الجالس على المقهى يلعب (جلبهار) على المشاريب

وقد ظل موقفهم معلقاً شهوراً عدة ، حـــتى حســـمته بلقـــيس ـــ كعادتها ـــ بعد اتصال هاتفى طويل بأوزو.

كان أوزو رجلاً نموذجياً يستحق كل قرش ينفق عليه ، فهو الوحيد القادر على إقناع أحمد بالاشتراك فى الصفقة ، ويملك صلات بالخارج تزيد من فرص البيع ، كما إنه قوياً ربما بما يكفى لهدم هذا الباب اللعين بكتفه ، وكان ـــ وهذا الأهم ـــ ، مجنداً فى سلاح المهندسين أبان الحرب ، يشارك كتيبتة فى كسح الألغام الإسرائيلية ، ويتعامل مع المتفجرات ببراعة جعلته يسرح من الخدمة بدرجة رقيب مجند ، وكان كالعادة تحت سيطرة بلقيس الكاسحة .

استيقظ أوزو فى اليوم التالى فى ساعة مبكرة بالرغم من سفرهم الطويل وأيقظ أحمد وراحا يبدلان ملابسهما استعدادا لبدء العمل ، بدا أحمد أكثر حماساً ورباط جأش من الأمس ، نشطاً مستعداً للتدمير وللجهد العضلى الشاق ، كأنه أيقن هو الآخر بأن هذا الجدار سد يمنع أنهار الخير من التدفق فى وجوههم ، صارت معركته الشخصية ، وصارت البضاعة خاصته ، وبات يشتم أنفاس ليلى العنبرية من فتحة استطاع صبور إحداثها فى الجدار.

خرج أوزو إلى المندرة ليجد نسوة الدار قد بدأن فى نشاطهن اليومى ، فجلس يجاوره أحمد فى انتظار الإفطار حتى هل عليهما صبور

نازلاً الدرج ، وتبعته بلقيس و لم يفت أحمد حمرة خديها والكدمة الخفيفة على جيدها البلورى الطويل ، والناجمة عن إطباقة شفتين غليظتين عليهما لمدة طويلة .

كان صبور يؤدى دور (جوز الست) ببراعة تثير الحسد فى النفوس، فهو لا يفعل إلا ما تأمره به مولاته بلقيس ، باستثناء ممارسة الجنس الذى لا يقلع عنها إلا حينما تنهره .

وهكذا بدأ إفطارهم فى حضور جمع أقل من الأمس ، عرفا منهم دياب وهو شاب فى مثل عمر صبور تقريباً ويبدو عليه المكر وكثرة التجربة وهو الوحيد كذلك العالم بحقيقة الأمر على ما يبدو ، بينما حامد صهر صبور يبدو طيب القلب إلى حد السذاجة ، محدود الذكاء لدرجة الغباء.

وبعد الانتهاء من الإفطار حاتمى الطابع ، واحتساء لترات من الشاى الأسود الثقيل ، وتدخين (قاروصتين) سجائر متباينة الأصناف ، حتى صار أحمد مندهشاً لبلوغ هؤلاء القوم سن الستين بأسلوب حياتهم هذا. بعد هذا كله تحرك الخمسة منتقلين إلى بيت صبور الجديد فى حضن الجبل ـــ موطن الحدث ـــ يتقدمهم دياب ، ويتبادل التحيات مع كل من يقابلهم ، وأوزو وأحمد يسيران خلفه

فى وقار القديسين كأنهما (أصحاب خطوة) ، ريثما يتبعهما بمسافة قصيرة صبور بك وحرمه (المصون) بلقيس صاحبة الحل والربط.

كان انبهار أحمد وأوزو لمرأى المقبرة عبر الفتحة الضيقة فى أعلى الجدار القاسى يبعث الطمأنينة فى قلب بلقيس والتوجس فى قلب صبور ، كان سحر الفراعنة قد وقر فى قلبيهما فصارا عبدين مستعدين لبذل حياتهما فى سبيل الوصول إلى منبعه.

كان أوزو يتحسس الجدار فى جذل كأنه يقبل امرأة حسناء ، كان يشم أصابع الديناميت كأنه يبثها لوعته.
كان أوزو يبدو فى عيونهم كساحر القبيلة الذى إذا استمطر السماء أمطرت، وإذا استنبت الأرض أنبتت.
كان رخاؤهم جميعاً بيديه ، وهلاكهم جميعاً أيضاً بيديه.

إن صبوراً لا ينجب .
تلك الحقيقة أدركها خلال سنوات خيانته للبكرى ، وهو ما أسعده حينها وجعله يستمتع بالجنس كاملاً دون حيطة ، ولكن بعدما تزوج من بلقيس وصار كل أبناء بلدته ـــ سواءٌ المقيمون فيها أم

المهاجرون عنها ـــ يلوكون سيرته ، صار هذا الأمر مصدر إزعاج دائم له ، و(معايره) فى الذهاب والإياب لعجزه عن تحقيـــق ذاتـــه كذكر ، وهكذا صار مريضاً مستديماً لدى أكبر أخصائىّ العقم فى القاهرة دون أى تقدم ملحوظ فى حالته حتى ضاق من كثرة معذبيه ، وتمنى لو كانوا جميعاً قد هلكوا فى السيول فأراحوا واستراحوا .

كان يعانى بينهم معاناة كل مصرى يحيا بين مصريين .

حيث أزمة الشعب المصرى تكمن تحديداً فى فضوله الشـــديد ، لا يوجد عند المصريين ما يسمى بالخصوصية ، ولا يوجد بينهم من لا يتدخل فى أدق تفاصيل حيوات الآخرين وكأنه يملك أرواحهـــم ، كثيرون يحيون فى أزمات ولديهم من المشكلات ما قد يدفع آخرين إلى الانتحار ، ولكنهم يتماسكون ويتكيفـــون مـــع مشـــكلاتهم ويتقبلونها ، بينما كل من حولهم لا يتقبلها .

فما كاد صبور يكمل شهرين فى زيجته الشرعية ببلقيس حتى بدأت أخواته يسألنها عن بوادر الحمل ، وبعد مرور أربعة أشهر بدأ رجال العائلة يسألونه، وبعد انقضاء العام صارت جميع المخلوقات تسألهما معاً، وتجاوز كثير منهم وراحوا يقدمون لـــه الوصـــفات البلـــدى للعلاج، أو أسماء (شيوخ سرها باتع) ، بينما العقلاء منهم يقدمون

له عناوين أطباء مشاهير فى هذا التخصص ، حتى ضاق هو بكثـــرة كلامهم أكثر مما ضاق بعقمه ألف مرة .

ولما كان صبور محترفاً فى الاستفادة من كافة الأوضاع ، فلقد أشاع فى الجموع بأنه (مربوط) بعمل من فعل جنية سفلية تسكن فى الجبل ، وهى التى استدعته بعد الطوفان كى يبتنى داراً تجاور كهفها الـــتى تسكنه، وأنه سيذهب إلى الإسكندرية كى يحضر (شيخاً) ليس لـــه مثال ، يحفظ (العهود السليمانية) كلها ، ويقدر أن يصرف الجنيـــة ويعالجه ، وكان هذا الشيخ هو أوزو بالطبع.

كان أحمد مستمتعاً بحالة الهدوء المحيطة بهم وهم يراقبـــون أوزو فى صمت وهو يجهز المعدات ، ويستعد للتفجير ، كان ادعـــاء أنهمـــا معالجان روحانيان له مفعول الســـحر فى طاعـــة الخلـــق لهـــم ، ولانصرافهم عنهم تماماً خشية على أنفسهم من (الرصد) و(اللبس)

كان أوزو قد أحدث بضعة فجوات صغيرة فى الطبقـــة الخارجيـــة للجدار ، اختار أماكنها بدقة بالغة فى تخطيط استراتيجى الطـــابع ، نفذها بصعوبة بالغة وجهد مضن ، وزرع بعدها أصابع الـــديناميت

فى هذة الفجوات وثبتها بشريط لاصق إلى الجـــدار وراح يوصـــل بينهم بالأسلاك الكهربائية ، وأخيراً أوصل طرفى السلك بالكبـــاس المستقر خارج الكهف خلف جدار حجرة المعيشة الخاصة بالدار ، ونظر إليهم جميعاً فى قلق ويده مستقرة على الكباس.

كانوا جميعاً متراصين بجواره ، ملتصقين بالحـــائط ، والأدرينـــالين يتدفق فى عروقهم كأنهم مجموعة من (الفداويـــة) يفجـــرون رتـــل مدرعات إسرائيلية فى السويس.
بسمل أوزو .. وحوقل .. وأغمض عينيه ، ثم ... ضغط الكباس.

كان دوى الانفجار مكتوماً باهتاً عما توقع أحمد ، كـــان يظنـــه انفجاراً طائشاً يزلزل الأرض من تحتهم ويرتج له الجبل ووتتطـــاير معه ألسنة اللهب الحارق فى كل اتجاه ، ولكن يبدو أن أوزو أجـــاد فعلته بحق ، غبار كثيف غلف الكهف والدار ووجوههم الشاحبة ، غبار شمل كل الموجودات وألهب العيون والأنوف والشعب الهوائية ، ورائحة البارود المحترق تزيده فتكاً ، فراحوا يتدافعون نحو الخارج ، وهم يسعلون ويتمخطون وتدمع أعينهم ، فقط الغبار ليس أكثر من هذا ، وكان الانفجار مبرراً من قبل سكان النجع ، فلابـــد أن

الشيخ أوزو يخرج العمل السفلى من باطن الجبل ، تلـــك الأمـــور معتادة عندهم فيما يبدو.

بعدما هدأت عاصفة الغبار ، وسكنت التربة ، واتضحت الرؤيـــة عادوا ملتهفين إلى الجدار الصخرى ليجدونه مازال مكانه لم يتـــهاوَ وإن تصدع بعنف وامتلأ بالشقوق ، نظروا جميعاً بدهشة إلى أوزو ، وقبل أن يتفوه أحدهم بأية كلمة كان أوزو يتنـــاول المعـــول ، ويتقدم بثقة تجاه الجدار لينهال عليه بعدة ضربات زادت خلخلتـــه وحولته إلى عدة صخور مفككة ، عاونه الجمع على نقلها خارجـــاً بما فيهم بلقيس حتى اتسعت الفتحة وصارت فى حجم الرجل البالغ ، فلم يكذب أوزو خبراً ودلف إليها ، وهم وراءه يلهثون انفعالاً . حجرة واسعة عالية السقف مزدانة بالزخـــارف والنقـــوش علـــى الجدران ، بها صندوق وأوعية فخارية يحيط بهم تماثيل دقيقة الصنع لجعارين ، وعدد هائل من الأصابع المضيئة (الونايس) المصنوعة من الذهب الخالص والتى تبدو كشـــموس صـــغيرة تشـــرق فى هـــذه الظلمات ، راح أوزو يتأملها ملياً ، يقلبها ، يعض عليها بأسنانه ، يختبر حرارتها على خده ، حتى قاطعه صبور بفتحه للصندوق كـــى يشهق هو ومن خلفه لمرأى تلك المشغولات والأدوات الشخصـــية

الخاصة بصاحب المقبرة ، بل صاحبى المقـــبرة فهـــى تضـــم أدوات ذكورية الطابع كالأسلحة والعصى ، وأخريات أنثويـــة كـــالمرود والمشط ، وغيرهم كثير .

لم تتمالك بلقيس نفسها وأسرعت إلى الحجرة الداخلية التى تـــزين مدخلها التماثيل الأبنوسية ، الحجرة التى كانت تناديها فى أحلامها ، الحجرة التى تطمع أن تمنحها مال قارون ، وملك سليمان ، وعمر نوح .

هرعت بلقيس لتروى فضولها الذى ألهبه الظمأ إلى المجد ، لتجد أمام ناظريها الجائزة الكبرى ، تابوتين متجاورين هما ، أحدهما لرجـــل والآخر لامرأة فى كامل زينتهما ، ويحيط بهما كثير مـــن التعاويـــذ والتماثيل المصغرة لآلهة مختلفة ، وعدد من الأشياء التى تتـــرجم إلى أموال أسطورية تستحق ارتكاب الجرائم من أجلها .

فهرع دياب إلى الدار ، وعاد مسرعاً يحمل بيده كاميرا (بولارويد) فورية ، وراح يلتقط الصور لكل شيء من حوله ، وأوزو يوجهـــه لتصوير بعض النقوش ، وعدة زوايا لكل شيء بالمقبرة ، حتى امتلأ حجر بلقيس بالصور السميكة المميزة لهذه الكاميرا ، وظل الجمـــع يدورون فى المقبرة ويتأملونها حتى خفت الضوء واستعصت الرؤية ،

فطلب صبور منهم الخروج جميعاً ، والتشـــاور فى قاعـــة الضـــيافة بالدار، بينما يتسلل لمسامعهم أذان المغرب .

بعدما اغتسل أوزو ورتب أغراضه ، وكذا فعل أحمد ، تحركا لغذاء متأخر الوقت نسبياً ولكنه مقصور على خمستهم فقط هذه المـــرة ، يتربعون على (طبلية) واحدة ، و بينهم بلقيس تتساءل عن خطوهم الآتية .

كان أوزو يحمل معه الصور، وتمثالاً دقيق الحجم والصنع لجعـــران من حجر ما كان ضمن المجموعة المجاورة للصندوق ، أخـــذه معـــه كدليل على أصالة المجموعة المعروضة فى الصور ، وكان مصراً على الرحيل بسرعة لأن وجودهم لا يعنى شيئاً ، بينما سفرهم يعنى البدء فى البحث عن مشترٍ فى عجالة ، لينال كل واحد منهم (حسنته).

كان كلامه منطقياً ووافقه أحمد السيد ، وطلب أن يتعاونوا علـــى إخفاء المقبرة حتى وقت البيع ، ولكن صبوراً كان عنده حل أسهل لإخفاء باب الكهف بأكمله ، بنقل خزانة الملابس مـــن حجـــرة الضيوف ووضعها أمام الفتحة لتخفيها ، خاصة وأن صبور يحيا هو

و بلقيس فى هذه الدار وحدهما ، ولا يستقبلان ضيوفاً إلا فى بيت العائلة ، وهكذا اتفق الجمع على سفر أحمد وأوزو فى الصباح الباكر ، وطلب أوزو من صبور كتمان الأمر تماماً ، وعدم القيام بأية محاولة للبيع من طرفهم حتى لا يذاع سر المقبرة ، وكان لا يملك الشجاعة لذلك فهو لا يجرؤ على عصيان بلقيس.

بلقيس التى ما أن اطمأنت على كترها حتى التفتت إلى أحمد كى تقهره ، كان صبور وديان يجلسان فى الحجرة التى بها باب المقبرة يحرسان كترهما ويتناقشان ، بينما أوزو يجلس خارج الدار أمامهم يجرع الشاى الذى صنعه على (الراكية) ، ويدخن ويتأمل سكون الليل فى حضن الجبل ، وهكذا كانت فرصة بلقيس لتختلى بأحمد فى حجرته التى أعدتها لاستقباله فيها هو وأوزو .

كان أحمد منهمكاً فى تأمل الصور ومحاولة استنباط أية معلومة تاريخية عنها ، ولكنه مثلهم جميعاً كان شديد الجهل بالثقافة الفرعونية ،لا يعرف عنها إلا القشور .

كانت بلقيس تتسلل إلى حجرته كأنها لبؤة تترصد غزالاً غافياً ، كانت فى ثوبها الحريرى المطرز تتلألأ كحوريات الأحلام ، كانت بلقيس تريد أن ترى الرغبة فى عين أحمد تتأجج ، تريده أن يتقرب منها ، يتوسل إليها ، يتحرش بها ، بل يحاول اغتصابها حتى تصفعه على وجهه ساعتها وتعطيه درساً فى الأخلاق ، وتجعل صبوراً يجلده فى ساحة البلدة ، ما كان يرضيها أقل من هذا بعدما صدها أحمد مرات ومرات فى السابق حينما كانت على أرضه ، اليوم هو على أرضها ولا بد أن يلعب بقواعدها هى .

كان أحمد يدرك ذلك جيداً وهى تسأله فى غنج عن توقعاته لمبلغ البيع ، تتأود وهى تتأمل الصور فى يده ، ثوبها يضيق على جذعها مع كل انثناءة ليبرز استدارة ردفيها ، عنقها الطويل يزينه الكردان الأثرى ليزيده غموضاً، ذات الكردان الذى كان يستقر على عنق تلك المرأة الفرعونية فى تابوتها .

كانت تمارس على أحمد إغواء لم تمارسه على رجل من قبله حتى صبور نفسه ، ولكنه ما زال إغواءً رخيصاً فظاً ساذجاً ، كله جسدى وكأنها تعلمت الإغواء من نجمات الإغراء فى السينما

المصرية ، النجمات المسنات ، مترهلات الجسد ، مجعدات البشرة ، المثيرات للشفقة أو الاشمئزاز ليس إلا.

وكما فشلت نجمات خريف العمر فى أداء أدوار الإغراء بمصداقية ، فشلت بلقيس أيضاً فى إغواء أحمد السيد الذى ضحك فى وجهها ، وأخبرها أن تطمئن ، واستأذن مغادراً الدار باحثاً عن أوزو.

كان أوزو يستمع إلى الراديو ويصنع مزيداً من الشاى فى ذات مجلسه ، فجلس أحمد بجواره وكاد يتحدث معه إلا أن أوزو نهره عن الكلام بأشارة خفية ، وهو يمنحه كوباً من الشاى ، وأغلق عينيه وتظاهر بالنعاس ، ظل أحمد السيد صامتاً لبرهة يستمع إلى الراديو هو الأخر ، ويجرع الشاى حتى جاءت بلقيس فى ثوب آخر أكثر رقياً واحتشاماً لتدعوهما للعشاء .

يقول أوزو وهو يحزم حقائبه ، ويأمر أحمد بالمثل :

– الناس دى ناوية غدر ، إحنا لا زم ننفد بجلدنا حالاً .

أحمد مندهشاً :

– فى أيه مش تفهمنى .

و لم ينطق أوزو بكلمة إلا بعدما اطمأن على الحقيبتين المحـــزمتين ، وعلى استعدادهما للرحيل المباغت فجلس على الســـرير ، وأشـــعل سيجارة بقداحته (الرونسون) ذهبية اللون والتى جاء بها من اليونان ولا يستعملها إلا فى مناسبات معدودة ، وقال :

- أنا كنت سايبهم يتكلموا وعامل نفسى مش ســـامعهم ، دياب ده هيرجع (دهب) دلوقتى ، وهو عنده ناس دايخـــة على حاجة فرعونى ومضمونين ليهم ، وأحنا كـــده بقـــى مالناش لازمة عندهم ، وأحنا ف قلب دارهم وناسهم مـــا نضمنش هيعملوا فينا إيه .

كان أحمد يصطدم بالحقيقة تلو الأخرى ، وأسقط فى يده ، فقـــال لصديقه بهمس مذعور :

- قوم بينا دلوقتى ، مستنى إيه ؟
- مستنى الليل يكبس والبلد كلها تنام ودياب يكون ركـــب الطريق ، نقوم إحنا نطلعوا من سكات ونشوفوا أى حاجة تطلعنا م البلد دى على خير .

لم يكن أوزو ينوى مغادرة المولد بلا حمص ، كان يريد سـرقة أى شيء من المقبرة خف وزنه وزاد ثمنه ، كانت (الونايس) الذهبيـة تداعب أحلامهم ، كان عددهم ٣٦٥ وناسة بعدد أيام السنة كلها، كان قد أحصاها مثلما حصر كل محتويات المقبرة ، كانت الونايس كثيرة العدد وما كانوا يلاحظون اختفاء قليل منها ، وهكذا تظاهر أوزو وأحمد بالنوم حتى تجاوزت الساعة منتصف الليل ، فقام أوزو فى هدوء كى يذهب إلى الحمام المجاور لغرفة المعيشة وتسلل بالقرب من حجرة نوم صبور حتى أدركت أذناه تأوهات بلقيس الملتاعـة وتهدج أنفاس صبور ، فعاد مسرعا لأحمد كى يعلق حقيبته علـى كتفه ويأمر أحمد بالمثل وينطلق به خارج الحجرة حتى وصـلا إلى الفتحة التى فتحها بنفسه ظهر اليوم .

يهمس أحمد : ما تيجى نمشى على طول بدل ما حد يكبس علينـا وإحنا جوه .

أوزو حانقاً : ونسيب كل ده ونطلع كده سلط ملـط ، وبعـدين اطمن صبور و بلقيس ظايطين دلوقتى ولا هيحسوا بينا حـتى لـو فجرنا ديناميت تانى .

لم يعلق أحمد ، وعبر الفتحة مهتديًا بضوء باهت مبعثه لهيب قداحة أوزو الذهبية ليقتحم معه حرمة الموتى ، ويخالف القانون ويغدر بمن أطعمهما وآواهما ، ثم يفر مع الفجر كأنه بطل فيلم أمريكى سخيف ، كانت تلك الأفكار تعصف بعقل أحمد ويدوى قلبه من الرعب .

كانت (الونايس) تتألق بضوء خفيف ، دافئ ، حنون على قرنية العين بدرجة طغت على ضوء قداحة أوزو فناولها لزميله ، وراح يحشر فى جيوبه ما طالته يداه من هذه الأصابع سحرية الخواص التى يضوى الواحد منها فى قبضة أوزو فتظهر تفاصيلها التشريحية كأنها أشعة (رونتجن) ، كان يبدو لأحمد أن أوزو سيستمر فى حشرها فى طيات ثيابه حتى تنفد الكمية أو أن تقوم الساعة ، وبغتة سطع فى وجهيهما ضوء قوى مبهر عمى بصرهما لثوانى وصرخ أوزو فجأة كمن لدغه عقرب ، وسمع أحمد صوت أزيز وشعر بقطرات من سائل لزج تتناثر على وجهه ، كل هذا فى لحظة واحدة لتتضح له بعدها الرؤية جلية واضحة لا تثريب فيها .

كان صبور واقفاً أمام مدخل الكهف يسد عليهم منفذ الهرب الوحيد بصدره العريض العارى قوى البنية ، والعرق يغمر جسده

بأكمله ، يرتدى سروالاً غير محكم الربط ، حافى القدمين ، يبـــدو كمقاتلى الحروب الهمجية ، بربرياً يذبح خصومه الأقوياء ويأكـــل أكبادهم النيئة ، ملامحه تكون لوحة فى غاية الإتقـــان تعـــبر عـــن الغضب ويده تصوب نحوهما مسدس (حلوان عيار ٩ مم) مـــزود بكاتم صوت يشى بتاريخ أسود من الاغتيالات ، وتتصاعد الأبخرة من فوهته الغليظة قبيحة الشكل .

ومن خلفه تقف الملعونة بلقيس فى ثوب نوم أحمر اللـــون شـــديد الشفافية لا ترتدى شيئاً سواه فلا يستر من عوراتها شيئاً بل يزيدهم تجسيداً ، وتحمل فى يدها كشافاً يدوياً ضخم الحجم يلقى ظـــلالاً مخيفة على ملامح وجهها ، لتظهر مع شعرها الثـــائر وحاجبيهـــا اللذَين أزالت نصف سمكهما بالموس كالشـــيطانيين فى رســـومات مطربات موسيقى الميتال (موضة العـــام) ومودياتهـــا ، وراحـــت تضحك فى شماتة ضحكة طويلة ماجنة مرعبة تنذر نهايتها بســـفك الدماء .

كان أحمد يدرك أنها النهاية ، لقد تم ضبته متلبساً فى مسرح الجريمة يتأهب للهرب بغنيمته ، ويا ليتها كانت شرطة الآثار تلـــك الـــتى

داهمتهما ، فما كان مصيرهما يكون بمثل هذا السوء لحظتها ، أدرك أحمد أنه يواجه صبوراً المسلح الغاضب لحد الجنـــون ، بينمـــا أوزو ملقى على الأرض يتأوه ، والدماء تغرق جانبه الأيســـر و بلقـــيس تقف عند رأسه لتضحك وتستمر فى الضحك .

صاح فيه صبور وهو يركله فى موطن الجرح بوحشية :

- سرقت إيه يا بن الكلب يا وسخ .

لم يجب أوزو واستمر فى التألم والصراخ فجالت عينـــا صـــبور فى المكان لتستقرا على الونايس ، وراح يعدهم بعينيه ليدرك النقص فى عددهم ، ثم استأنف :

- نهار أبوك مش فايت سرقت م الونايس ، عايز تبـــوظ لى البيعة ، ما تعرفش أن الونايس دى مجموعة على بعضـــها ، ما تتباعش غير وهى كاملة ولو نقصت واحدة بس يبقـــى ما لهاش عازة .

كان يكلمه وهو يقترب منه حتى انحنى عليه ، وقبض علـــى ثيابـــه وشرع يفتشهم فى شراسة الذئاب ، ويستخرج منه تلك المصـــائب التى أدت للخراب والدم وهو يسدد المسدس إلى جبهته .

ثم أخيراً نطقت بلقيس لتقول بلهجة تقطر سخرية وشماتة :

– كنتم فاكرينا أجفال ، هنسيبوكوا تُهربوا بالكتر اللى لجيناه ف أرضنا ، بقى بعد ما أمناكم تخونونا ، ع كل حال الحق هيرجع لصاحبه وإحنا لينا صرفة فيه بعيد عنيكم.

كان أحمد السيد يقف مذهولاً لم ينبس ببنت شفة ، لا يعرف ماذا يفعل ؟ يبحث ببصره عن منجى كالمجذوب، حتى فتح أوزو فمه ليهمس بشيء ما ، فاقترب منه صبور لينصت السمع ولكن أوزو ــ ربيب الحوارى ــ لم يكن صيداً سهلاً أبداً.

لقد بدا لأحمد صوت تحطم أنف صبور الذى صدمته قبضة أوزو اليسرى ــ المنطلقة كالطوربيد ــ أقوى من صوت تصادم السيارات المسرعة بعضها ببعض ، ثم على الفور سمع التكة المعدنية المميزة لفتحة المدية (قرن غزال) التى لم يكن يعرف أن أوزو يحمل منها واحدة ، وفى ثانية واحدة وجدها تشق ذراع صبور بالطول ليصرخ كامرأة تعانى عسراً فى الولادة ، ويطير المسدس من يده وبعدها يجد أوزو يلقى بثقله كله على صبور ، ويلتحم معه فى صراع عنيف بعدما أصبح كل منهما مصبوغاً بدمائه ، لا ترى له ملمحاً واحداً ، وسارع أحمد زاحفاً على الأرض لالتقاط المسدس من خلف الصندوق الخشبى الكبير ، وما كاد يرفع عينيه حتى وجد نفسه يحدق فى فوهته المخيفة المصوبة إلى جمجمته ، ويطل من أعلى

وجه بلقيس واثقاً مسيطراً يأمره بالثبات ، وصـــرخاتها تـــأمر أوزو بالاستسلام.

كان أوزو قد سلخ جلد صبور من كثرة الجـــروح القطعيـــة الـــتى أصاب بها جذعه ، ولكنه بالرغم من هذا إلا أنه ظل متمالكاً نفَسه واقفاً على قدميه ، بينما أوزو يترنح فى وقفته ، و بلقـــيس واقفـــة تبدل اتجاه مسدسها بين وجهه ووجه أحمد السيد الذى بـــدا لـــه المشهد طويلاً ممتداً لن ينهيه إلا تدخل ملاك الموت لقبض أرواحهم أجمعين.

أحمد السيد ...

الذى هام بليلى وتركها تذوب من بين أنامله دون أى حراك.

الذى طاردته بسمة فتركها تقتنصه دون أدنى محاولة للفرار.

الذى انتزعه أوزو من بيته فى الإسكندرية الرائعة كى يلقى بـــه فى هذا الجب الخانق المظلم فى هذا المكان غير المدرج على أية خارطـــة ليتركه ويموت فى انتظار لحاقه به بعد خمس دقائق.

أحمد السيد الذى يقبض بيده على قداحة (رونسون) ذهبية عيـــار ١٨ ، كانت ملكاً لأوزو الذى تهاوى على ركبتيه أمام صبور الذى

لا زال قائماً على قدميه برغم جراحه التى تحتاج إلى عشرة أمتار من الخيط الطبى لتقطيبها.
أحمد السيد الجالس على الأرض أمام عاهرة تملك مسدساً فتك بصاحبه ، ويستدير كى يقتله هو الآخر.

أحمد السيد الجالس بجوار صندوق متفجرات به دستة أصابع ديناميت باقية منذ حفل البارحة.
هل كانت البارحة حقاً. لا يهم فقد قال دياب إن التفجير العشوائى للديناميت سيؤدى إلى هدم الكهف فوق رؤوسهم أجمعين.

قالها فى ثقة بالغة كأنه هدم جبلين من قبل.
هل كان محقاً فى ذلك؟..
كذا تساءل وهو يشعل قداحته.

{ تمت }

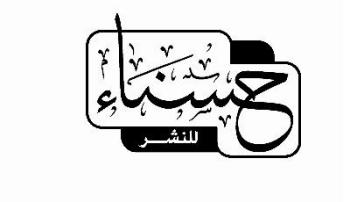

الإسكندرية ، ج . م . ع

٠١٠١٨٨٣١٣٦١

٠١٠٢٢٨٤٢٨٩٨